أحاديث للطلاب

الفصل الأول

بشـــير الاسـترخاء

أريد فى الســاعة التالية أن أتنــاول بعض القوانين ، أو المبــادىء السيكولوچية المعينة ، وأبين تطبيقاتها العملية على الصحة العقلية ، وبصفة خاصة صحة حياتنا الأمريكية .

إن قومنا — وخصوصا فى الدوائر العلمية — يتجهون اليوم نحو علم النفس ويتوقعون منه الكثير ، فاذا أراد علم النفس أن يبرر لهم هذا الاتجاه والتوقع وينصفهم فليبين لهم ثمراته فى التربية وفى العلاج النفسى .

ولعل القارىء قد سمع عن نظرية عجيبة للانفعالات يشار اليها عــادة فى المؤلفات السيكولوچية بنظرية لانج جيمس Lang-James . وطبقا لهذه النظرية فان انفعالاتنا ترجع أساسا الى تلك التحركات العضوية التى يثيرها فينا بطريقة الفعل المنعكس باعث أو مثير صــادر عن موضــوع أو موقف .

إن انفعال خوف مثلا ، أو دهشة ، ليس نتيجة مباشرة لأثر وجــود الموضوع فى العقل ، ولكنه نتيجة لذلك الأثر السابق على ذلك ، ألا وهو الاضطراب الجسمانى الذى يهيجه الموضوع فجأة ، بحيث انه لو أخمــد هذا الاضطراب الجسمانى فلن نشعر بالخوف الى الدرجة التى تجعلنا نسمى الموقف مخيفا ، أو نشعر بالدهشة ولكن ندرك ببرود أن الموضوع كان حقا مدهشا .

ولقد بلغ بأحد المتحمسين حدا من التطرف جعله يقول اننا عندما نحزن فلاننا نبكى .

وعندما نشعر بالخوف فذلك لأننا نجرى ، وليس العكس ، أى اننا نجرى لأننا نخاف ، ولا شك أن بعضا منكم ملم بهذه التركيبة المتناقضة المعكوسة .

والآن مهما يكن نصيب هذه النظرية لانفعالاتنا من المبالغة — وأنا أشك فيما اذا كانت مبالغة كبيرة جدا — فمن المؤكد أن لبها الأساسى صحيح ، وأن مجرد الاستسلام للدموع — مثلاً — أو للتعبير الخارجى عن نوبة غضب ينتج عنه — مؤقتا — جعل الحزن الباطنى أو الغضب أكثر حدة فى الشعور به .

وبناء على ذلك فلا توجد سنة معروفة أحسن أو أكثر فائدة وجدوى فى التدريب الخلقى للشباب أو النظام النفسى الشخصى للمرء ، من تلك السنة التى تطالبنا بأن نوجه عنايتنا الأساسية وانتباهنا الأولى الى ما نفعله وما نعبره ، وألا نعنى كثيرا بما نشعر به .

لو أننا استطعنا أن نردع ونقمع دافعا للجبن والخنوع فى وقته مثلا ، ولو أننا استطعنا فقط ألا نوجه اللطمة أو الضربة أو نمزق الشكوى أو نمضغ كلمة الاهانة التى سنندم عليها طوال حياتا ، فان مشاعرنا نفسها ستصبح عما قريب أهنأ وأحسن دون توجيه خاص منا بسببها .

ان العمل يبدو أنه يستتبع الشعور ، ولكن الحقيقة أن العمل والشعور يمضيان معا . وبتنظيم العمل الذى يكون تحت الضبط المباشر للارادة أكثر من الشعور ، فاننا نستطيع بطريقة غير مباشرة أن ننظم الشعور الذى لا تتحكم فيه الارادة .

وعلى هذا فان سيد الطرق الارادية للبهجة — اذا افتقدنا بهجتنا التلقائية — هو أن نجلس مبتهجين ، وأن ننظر حولنا بابتهاج ، وأن نتصرف وتتكلم كما لو كانت البهجة ماثلة أمام أعيننا بالفعل .

واذا لم يستطع هذا المسلك أن يجعلك مبتهجا حالا ، فلا يوجد شيء فى هذه المناسبة يستطيع أن يجعلك مبتهجا .

وعلى هذا النحو — لكى نشعر بالشجاعة — فلنتصرف كما لو كنا شجعانا ، ولنستعمل كل إرادتنا لهذه الغاية ، ومن المرجح أن نوبة شجاعة ستحل محل نوبة الخوف .

وكذلك إذا أردنا أن نترفق بشخص سبق لنا أن اعتدينا عليه ، وأن نشعر حياله بالود والتلطف ، فالطريقة الوحيدة هى أن نبتسم فى وجهه عامدين ، وأن نستفسر عنه ، وأن نجبر أنفسنا على أن نقول له قولا كريما .

إن ضحكة من القلب يضحكها عدوّان معا ستجعل كلا منهما يدفع بالتى هى أحسن، «فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم». هذه الضحكة ستفعل فعل السحر فى نفسيهما وتقربهما أحدهما من الآخر أكثر بكثير مما تفعله تلك الساعات التى ينفقها الطرفان فى المصارعة الباطنية مع الوسواس العقلى لشعور عدائى .

ان مصارعة شعور بيء انما يثبت انتباهنا فيه وحسب ، ويمكن له فى عقولنا فى حين أننا اذا تصرفنا كما لو كان تصرفنا صادرا عن شعور طيب فسرعان ما يطوى الشعور القديم خيمته ويحمل عصاه على كتفه ويرحل فى صمت .

بناء على ذلك فان أحسن المختصرات الدينية تكرر الحكمة القاضية بأنه يجب علينا أن نتجاوز عن مشاعرنا ، وألا نلقى اليها بالا مطلقا .

فى كتيب رائع بارع واسع الانتشار يسمى « سر الحياة السعيدة عند المسيحى » ألفته الكاتبة المسز هاناه هويتول سميث Mrs. Hannah Whitehall Smith وجدت هذا الدرس على كل صفحة تقريبا :

« تصرف بايمان — تكن مؤمنا حقا مهما يكن شعورك بالبرودة ، أو حتى بالشك » .

لقد كتبت المسز سميث تقول :

« انه هدفك ، هو الذى ينظر اليه الله ، وليست مشاعرك نحو هذا الهدف . ولذلك فان هدفك أو ارادتك هى الشىء الوحيد الذى تحتاج الى تركيز انتباهك فيه . دع انفعالاتك تجىء أو تذهب كما يريد لها الله ولا تلق اليها بالا سواء أجاءت أم ذهبت ، اذ لا شأن لها فعلا بالمسألة . ان انفعالاتك ليست المؤشرات الدالة على حالتك الروحية ، ولكنها مجرد دلالات على مزاجك أو حالتك الجسمية الراهنة » .

بيد أنكم جميعا تعرفون هذه الحقائق قبلا ، ولذلك لا أريد أن ألح عليكم بها بعد ذلك .

من أعمالنا ومواقفنا تأتى تيارات دافقة لا تتوقف من الاحساس ؛ وهى التى تساعد على أن تحدد وتقرر من برهة لأخرى . ما ستكون عليه أحوالنا الباطنية . وهذا قانون أساسى فى علم النفس يتعين علىّ أن أمضى قدما فى اتخاذه .

ظهر حديثا كتاب لعالم نمسوى ذى شهرة واسعة من علماء الأعصاب أسماه Binnenleben — آى « الحياة الدفينة للناس » .

ولقد ذكر هذا العالم أنه لا يمكن لطبيب أن يصطنع علاقات مفيدة حقا مع مريض عصبى مالم تكن عنده فكرة عن الحياة الدفينة لذلك المريض

والنجو الباطنى الذى لا يصفح عنه ولا يجأر به ، حيث يقيم وعيه وحيدا رهين محبسه .

هذا النغم الشخصى الباطنى هو ما لا يستطيع نقله بدقة أو وصفه بتحديد للآخرين ، ولكن شبحه وشبيهه هما غالبا ما يشعر أصدقاؤنا وأحبابنا أنهما أكثر الصفات تمييزا لنا .

وفى العقول الملتاثة المريضة — بصرف النظر عن كل أنواع الندم القديمة وأصناف الطموح التى أوقفتها أحاسيس العار وألوان الآمال التى اعتقلها الجبن عند أصحاب هذه العقول المريضة — يتكون هذا النغم الشخصى الباطنى من كدر جسمانى لا يستطيع المريض أن يحدد مكانه بوضوح ، ولكنه يملى فيه شكا عاما فى ذاته ، وارتيابا منها ، وإحساسا غامضا بأن الأمور لا تجرى على النحو الذى ينبغى لها أن تمضى فيه ، وليست كما يجب أن تكون .

إن نصف الظمأ للخمر الموجود فى العالم مرده بكل بساطة الى أن الخمر تؤدى دور المخدر المؤقت والمزيل لكل تلك الكروب ومشاعر الغم التى لا ينبغى أن تكون موجودة عند أى إنسان بتاتا .

وعلى العكس من ذلك ، فعند أصحاب العقول السوية الصحية لا توجد مخاوف ولا مشاعر بالعار ليماط عنها اللثام . والأحاسيس التى تنسكب من الجهاز انما تساعد على دعم وصيانة وتعلية الشعور العام الحيوى بالطمأنينة والاستعداد لملاقاة ما تأتى به أحداث الدهر .

اعتبر — مثلا — الآثار الطيبة — لجهازنا الحركى العصبى والعضلى إذا كان ذا نغم تام الانسجام والوئام — على حالتنا العامة من الوعى بالذات ، وعلى الشعور بالمرونة والكفاية الناتجة عن توافق واكتمال هذا النغم .

يقولون ان حياة المرأة فى النرويج قد شملتها أخيرا ثورة كلية بسبب النتائج التى ترتبت على الاحساسات العضلية لدى النساء التى أدى اليها استعمالهن لأداة الانزلاق على الجليد ski ولبس أحذية الثلج الطويلة كالرجال سواء بسواء .

فمنذ خمسة عشر عاما كانت النساء النرويجيات — أكثر من بقية نساء البلاد الأخرى — من أشد النساء محافظة وتحمسا وتعبدا للمثل الأعلى القديم القاضى بأنثوية المرأة « ملاك البيت الطاهر » ذات التأثير الملطف المهذب الشائق الرائق . والآن — قدر لهؤلاء النساء قعيدات دورهن الى جانب المدفأة — ودربت تلك القطط الأليفة ، فأصبحن بفضل أحذية الجليد مخلوقات جريئة لينة مرنة لا يخشين ظلمة الليل ولا يرهبن ارتفاع الجبال وانما يقتحمن الأخطار غير هيابات ولا وجلات ، وهن لم يودعن ذلك التركيب الأنثوى التقليدى الهش الرقيق فحسب ، ولكنهن أمسكن بزمام القيادة فى كل حركة للاصلاح التربوى والاجتماعى .

ولا يسعنى الا أن أعتقد أن عادات لعب التنس ، والتجوال ، والتزحلق على الجليد ، وهوس ركوب الدراجات — التى انتشرت سريعا بين اخواتنا وبناتنا العزيزات فى بلادنا ستفضى أيضا الى نغم أخلاقى أكثر صحة وجدوى وحماسة عن ذى قبل ، وان هذا النغم الفتى الحمى ستشيع أنفاسه القوية فى حياتنا الأمريكية كلها ، ويبعث فيها الحيوية والنشاط .

إن أملى كبير فى أن نزداد هنا فى أمريكا فهما واتخاذا للمثل الأعلى القاضى بأن الجسم السليم القوى الذى أحسن تدريبه سيمشى جنبا لجنب وكتفا لكتف مع المثل الأعلى القاضى بتدريب وتقوية العقل على أحسن وجه — وأن يتزامل المثلان كندين لا ضدين ، ومكملين لا نقيضين ، ونصفين

متلازمين متجاورين متساويين فى التعليم العالى للذكور والاناث على السـواء .

إن قوة الامبراطورية البريطانية تكمن فى قوة خلق الفرد الانجليزى كفرد لا رقيب عليه ولا حسيب سوى نفسه .

وأنا على يقين من أن هذه القوة تستمد قوتها وغذاءها باستمرار وتشتق حيويتها الموصولة من عبادتهم القومية — التى تشترك فيها كل طبقات الشعب — للحياة الرياضية الطليقة والألعاب الرياضية ، أكثر من أى عامل آخـر .

أذكر منـذ سنتين أننى كنت أقرأ مؤلفا لطبيب أمريكى عن الصحة وقوانين الحياة ونوع المصير الذى ينتظر الانسانية فى المستقبل ، ولقـد نسيت اسم المؤلف وعنوان الكتاب . ولكنى أذكر جيدا نبوءة مزعجة وردت فى الكتاب عن مستقبل جهازنا العضلى . وأهم ما أكده المؤلف أن الكمال الانسانى معناه القدرة على السيطرة على البيئة . ولكن البيئة ستحتاج دواما الى مزيد ومزيد من القوى الفكرية ، وأقل وأقل من القوة الحيوانية المجردة . إن الحروب ستنتهى وتتوقف ، وستقوم الآلات بأداء كل الأعمال الشاقة بدلا من الانسان ، وسيصبح الانسان مجرد موجه لطاقات الطبيعة باذلا أقل جهد ممكن من عنده .

فاذا اقتصر جهد إنسان المستقبل على هضم الطعام والتفكير ، فما حاجته عندئذ لتنمية عضلاته وتقويتها ؟ ثم يمضى المؤلف فى تبيان وجهة نظره فيتساءل :

ولماذا لا نقتنع — حتى منذ الآن — بنوع من الجمال الفكرى الأكثر رقة ورقيا من ذلك النوع الذى أعجب به أسلافنا ؟

بل لقد سمعت واحدا من أصدقائى ذوى الخيال الجامح يتقدم خطوة أخرى فى اتجاه هذا الانسان الجديد فيقول إن طعام المستقبل سيعد على شكل سائل من العناصر الكيمويةللجو معدا بخمائر الهضم ، أو نصف مهضوم مقدما ، ثم يمتص من أنابيب زجاجية تخترق علبا صفيحية . فماحاجة الانسان عندئذ للأسنان ، بل ما حاجته للمعدة ؟ ! .

كل ذلك قد يذهب بعضلاتنا وشجاعتنا البدنية ، ولكنه يشحذ أكثر وأكثر قوى أخرى فينا ، فيزداد حجم رءوسنا فتصبح كالقباب الهائلة تظل من تحتها عيون حادة من وراء المنظار الزجاجى ، وتبرز من أسفلها شفاه رقيقة مرنة لا تكف عن الفيضان بحديث كله علم وعبقرية . ولن يكون للانسان أى عمل يوافق تركيبه الجديد سوى الكلام .

أنا متأكد أن أبدانكم تقشعر من هول هذه الرؤيا . ولقد اقشعر بدنى بالتأكيد عندما قرأتها ، ولا يمكننى أن أتصور أبدا أن قوتنا العضلية ستصبح ذات يوم مجرد نافلة .

وحتى اذا جاء ذلك اليوم الذى لا نحتاج فيه اليها لخوض الحروب الجبارة القديمة ضد الطبيعة فاننا سنحتاج اليها دائما لكى تمدنا بأساس للصحة والرصانة والهدوء والابتهاج للحياة ، وسنحتاج اليها لكى تمد مزاجنا بالمزونة الخلقية وترقق من حواشينا وتلطف ما يحتوشنا من ضجر ونكد،وتجعلنا مرحين موطئى الأكناف .

إن الضعف خليق بأن يصبح ما يسميه الأطباء الضعف النزق أو النكد .

إن نعمة السلام الباطنى والثقة والطمأنينة والسكينة والتقبل — نعمة « الرضا » كما اعتاد سبينوزا Spinoza أن يسميها — الذى يتدفق من كل جزء من جسم الانسان ذى العضلات القوية المدربة المتناسقة المتناغمة

المنسجمة ، وتشيع فى روحه التى تسكن جسده — الارضاء والكفاية هى عنصر بالغ الأهمية فى الصحة الروحية ، بصرف النظر عن أى اعتبار لفائدتها الميكانيكية .

والآن دعونا نتعمق فى موضوع الصحة العقلية ونحاول أن نجند بصيرتكم وعطفكم لقضية أعتقد أنها فى منتهى الأهمية لنا معشر اليانكى Yankees

منذ عدة سنوات زار هذه البلاد طبيب سكوتلندى اسمه الدكتور كلوستن Dr. Clouston — أو الطبيب المجنون — كما يسمونه هناك — أو ما ينبغى أن نسميه طبيب البيمارستان (وهو أشهر طبيب من هذا النوع فى اسكتلندا) .

وإبان زيارته لبلادنا قال هذا الطبيب الشهير كلاما ما زلت أتذكره منذ ذلك الوقت حتى الآن ، وما زال يرّن صداه فى سمعى وفى خلدى :

« أنتم معشر الأمريكيين ترهقون وجوهكم بكثرة ما يبدو عليها من تعبيرات ، انكم تعيشون كالجيش الذى يلقى بكل ما عنده من احتياطى فى المعركة .

إن طلعة الانجليز ومحياهم البليد الكال يدل على أن هناك نظاما للحياة أفضل من نظامكم ، وأسلوبا للعيش أجدى من أسلوبكم ، انها تشير الى وجود معين لا ينضب من القوة العصبية المدخرة عندهم لوقت الشدة اذا ما دعتهم الضرورة واقتضتهم الحاجة . هذا الثبات والهدوء ، هذه الوفرة الدائمة للقوة فى كل وقت ، هذا الاحتياطى المذخور ، هذا الرصيد الموفور .. هو فى نظرى أعظم ركيزة لحمايتنا وأقوى سند لنا معشر البريطانيين . ان نفاد هذا الاحتياطى من عندكم باستمرار يعطى شعورا بعدم الطمأنينة وفقدان الأمن ، وعليكم أن تخففوا هذا النغم العالى المشدود على نحو ما . ان تعبيرات وجوهكم تحمل طابع الغلو . إنكم

تعالجون تفاهات الحيـاة وسفاسفها بتوتر ومبالغة وتوسع لا مبرر لها ولا مسوغ » .

إن الدكتور كلوستن Clouston رجل خبير بصير بقراءة أسرار الروح كما تتجلى على المحيا . وهذه الملاحظة الدقيقة التى تلوتها عليكم والتى استطاع أن يبين بها ما يعتمل فى نفوسنا وتنطق به وجوهنا ، هذه الملاحظة لها مضامين بعيدة المدى .

وكل الأمريكيين الذين يقيمون فى أوروبا مدة كافية تسمح لهم بالتعود على الروح التى تسود الحياة هناك وتتجلى فى محيا القوم وطلعتهم ، والتى تبدو هادئة زاخرة بالسكينة اذا قورنت بما يصدر عنا معشر الأمريكيين ، أقول إن كل هؤلاء الأمريكيين الذين عاشوا فى أوروبا يبدون الملاحظة نفسها مرجعهم الى قومنا وشـواطئنا . فبمجـرد عودتهم تطالعهـم عيون بنى قومهم بنظرات حـادة تنطق اما باللهفـة والقلق ، أو بالاسـهال العاطفى والنية الطيبة . ومن الصعب أن نقول فى أى الجنسين تتجلى هذه الظواهر عندنا أكثر — فى الرجال أم النساء .

وحقيقة أننا لا نشعر بهذه الظاهرة قط — كما أحس بذلك الدكتور كلوستن .

وكثير منا — بدلا من أن يرثوا لها ويأسفوا عليها — يعجبون بها . اننا نقول :

« أى ذكاء تفصح عنه . ما أروعنا وما أبرعنا لأننا نختلف عن تلك الوجنات البليدة والعيون الجامدة التى تشبه عيون السمك الـ Codfish والمزاج البطىء الجمادى الفدم الذى يطالعنا فى الجزر البريطانية ! » !

ان الغلو والسرعة والحيوية الشديدة فى المظهر هى فعلا صفات تلتصق بنا كمثل عليا قوميـــة تتقبلها ونرتضيها . والرأى الطبى الذى يصـــفها « بالضعف النزق أو النكد » ليس هو الرأى الذى يتبادر الى أذهاننا من جرائها كما تبادر الى ذهن الدكتور كلوستن عندما تبينها فينا .

أذكر أننى قرأت فى صحيفة أسبوعية منذ مدة غير بعيدة — قصة — بعد أن وصف الكاتب فيها جمال وشغف وروعة شخصية البطلة — أوجز كل سحرها وجاذبيتها بأن قال ان كل من نظر اليها لا يمكنه أن يقـاوم انطباعا أو أثرا قوامه أنها كالبرق الخاطف المعبأ فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من برق خاطف .

هذه هى حقيقتنا : برق حبيس زجاجة ورهينها يسطع ويخطف الأبصار والأفئدة ! هذا هو واحـد من مثلنا العليا الأمريكية ، حتى بالقياس الى شخصية فتاة صغيرة .

وليس من اللياقة أو اللطافة — وقد يبدو لبعض الأشخاص عملا غير وطنى — أن ننتقد على الملأ الخصائص والعجائب الجسمانية لقومنا وأهلينا .

وبالاضافة الى ذلك ، فرب قائل يقول — وله الحق فى ذلك — إن هناك أمزجة كثيرة على غرار البرق المعلب فى زجاجة فى بلاد أخرى غيرنا وان هناك أمزجة أخرى كثيرة فى بلاد زاخرة بالهدوء والسكينة ، وانه فوق كل شىء وبعد كل شىء فان زيادة هذا التوتر أو نقصانه الذى أكاد أقيم عليه الدنيا وأقعدها ، ليس الا جزءا يسيرا جـدا من جماع حياة أمة من الأمم ولا يستحق كل هذا التناول الخطير فى الوقت الذى يتعين علينا أن نتحدث عن المسائل السارة البارة لا المسائل المنفرة الضارة .

هذا حسن — فليكن — فان زيادة أو نقصان التوتر فى وجوهنا وفى عضلاتنا التى لا تستعمل — أمر صغير فعلا — فان هـذه التقلصات

لا تؤدى عملا آليا كبيرا . ولكن ليس دائما الحجم المادى للشيء هو الذى يقرر أهميته وانما وضعه ووظيفته .

من أعظم الملاحظات الفلسفية التى سمعتها فى حياتى تلك الملاحظة التى قالها عامل غير متعلم كان يقوم ببعض الاصلاحات فى بيتى منذ سنوات عديدة .

قال هذا العامل : « إن الفرق ضئيل جدا بين رجل وآخر عندما تصل الى القاع أو النخاع ، ولكن هذا الفرق — الضئيل أيا كان — فى منتهى الأهمية » .

وهذه الملاحظة تنطبق بالتأكيد على هذه المسألة التى تتناولها .

هذا التقلص أو الانقباض العام — الزائد عن الحد — قد يكون صغيرا وضئيلا إذا قدر بالوزن أو الحجم ولكن أهميته بالغة بالقياس الى نتائجه وآثاره على الحياة الروحية للشخص الذى يغلو فى التقلص والانقباض .

وهذه نتيجة ضمنية تترتب على نظرية الانفعالات التى أشرت اليها فى مطلع هذا الحديث لأنه بوساطة الاحساسات التى تتدفق بلا توقف من الجسم المثار الفائق التوتر — يحدث استمرار موصول لعادة للعقل مثارة فائقة التوتر — تقابلها .

والجو الباطني الزاعق المهدد المضني المستنفد للطاقة فى « عك » لن ينقشع أبدا تماما .

اذا كنت لا تسترخى أبداً — بجسمك كله — على المقعد الذى تجلس عليه ، ولكن تظل دائما ثانيا ساقك وعضلات جسمك نصف ثنية متأهبا للنهوض ، واذا كنت تتنفس ثمان عشرة مرة أو تسع عشرة مرة فى الدقيقة

بدلا من ست عشرة مرة فى الدقيقة ، ولا تتبع شهيقك زفيرا ، فأى مزاج عقلى يمكن أن تكون فيه الا بهرا ولهثا باطنيا وتوقعا للفرج ؟

وكيف يمكن للمستقبل وهمومه أن تهجر عقلك ؟ .

ومن ناحية أخرى كيف يمكن لها أن تدخل عقلك اذا لم تنبسط لها جبهتك ؟ واذا لم يكن تنفسك هادئا وكاملا وعضلاتك كلها مسترخية ؟ .

والآن : ما هو السبب فى فقدان السكينة وفى وجود هذا البرق المعلّب فينا نحن الأمريكيين ؟

إن التفسير الذى نسمعه عادة أن السبب فى ذلك هو الجفاف الشديد لمناخنا ، والألاعيب البهلوانية الصادرة عن ميزان الحرارة والبرودة عندنا ، مضافا إليهما تلك القفزات التقدمية الشديدة فى حياتنا وما يصاحبها من عمل شاق مضن — معلى عليها سرعة المواصلات بالسكك الحديدية ، وسرعة النجاح ، وبقية الأشياء الأخرى التى نحفظها جميعا عن ظهر قلب .

حسنا — فليكن — فان مناخنا بالتأكيد مثير ومبهج ، ولكن لا يختلف فى ذلك عن المناخ فى كثير من أجزاء أوروبا حيث لا توجد مع ذلك بنات كالبرق المعلب فى زجاجة .

والعمل الذى تتطلبه الحياة فى كل عاصمة كبيرة من عواصم أوروبا ، وخطو الحياة ووقعها ، لا يقل حدة ولا تطرفا عما عليه الحال عندنا .

يبدو لى أن هذين السببين الملفقين لا يكفيان أبدا لتفسير الحقائق .

ولكى نفسرها ينبغى ألا نلجأ للجغرافيا الطبيعية بل نولّى وجوهنا شطر علم النفس والاجتماع .

ان آخر فصل فى كلا علمى النفس والاجتماع يمكن تنميته على نحو يقارب الكفاية هو الفصل الخاص بالباعث التقليدى أو وازع المحاكاة .

فأولا باجهوت Bagehot ثم تارد Tarde ومن بعدهما رويسى Royce وبولدوين Baldwin هنا قد برهنوا على أن الاختراع والتقليد — اذا اقترنا معا يشكلان لحمة وسدا الحياة الانسانية لدرجة كونها اجتماعية .

ان التوتر الفياض ، والأعصاب المشدودة ، وتقطع الأنفاس والحدة والغضب والنزاع التى تتجلى كلها على محيانا وفى تعبيراتنا ، هى أولا وقبل كل شىء ظواهر اجتماعية ، وثانيا فقط فسيولوچية .

انها عادات سيئة — لا أكثر ولا أقل — اكتسبت وحصلت بالممارسة والتعود والمثل ونجمت عن تقليد النماذج السيئة وعن غرس المثل العليا الشخصية الزائفة .

كيف تحصل الاصطلاحات وتكتسب ؟

كيف تحدث اللهجات المحلية فى القول والاشارة والعبارة بما فيها من غرائب وعجائب ؟

إنها تتم عن طريق مصادفة عرضية تصدر عن شخص ما ، ثم يسمعها الآخرون ويقتبسونها وينسجون على منوالها ويقلدونها الى أن يلوكها كل لسان فى ذلك المجتمع المحلى .

وكذلك الأمر بالقياس الى حيلنا القومية فى النطق والتلحين والتنغيم والعادات والآداب والحركات والاشارات وتعبيرات الوجه التى تتعودها وتألفها ونمارسها .

نحن هنا فى أمريكا نتيجة لاتباعنا سلسلة موصولة انحدرت الينا من واضعى أنماط ونماذج يستحيل علينا اليوم أن نقتفى آثارهم ونرصد جذورهم ، وبوساطة تأثير بعضنا فى البعض الآخر فى اتباع الطريق الخاطىء والاتجاه المرذول استقربنا الأمر فى النهاية — جماعيا — الى التشكل

والانصباب فى نمط قومى له خصائصه خيرا كانت أم شرا . وهو نمط — بما يصاحبه من هذه العادات — لم يكن للمناخ ولا للظروف والأحوال شأن ولا يد فيه قط .

هذا النمط — الذى وصلنا اليه على هذا النحو بالتقليد — ثبتناه اليوم فينا واتخذناه نموذجا لنا خيرا كان أم شرا .

ولا يوجد نمط يخلو كليا من المزايا — ولكن ما دام نمطنا يتبع نموذج البرق المعبأ فى زجاجة ، فلا يمكن أن يكون نمطا طيبا كله .

لقد كان الدكتور كلوستن Dr. Clouston على حق بالتأكيد عندما قرر أن التحمس الشديد ، وبهر الأنفاس ، والقلق ، والركض ، ليست من علامات القوة ، وانما هى علامات دالة على الضعف ورداءة التناسق .

ان الجبين المستوى ، والخد الذى يبدو كصفحة الحجر أو لوح الخشب والعين الجامدة التى تشبه عين السمك codfish — قد تكون أقل إثارة أو ظرفا — مؤقتا — ولكنها علامات تحمل فى طياتها إمكانات وقدرات أكثر رجاء لمن يصطنعها ويحوزها فى المدى الطويل من ذوى التعبير الحاد والتوتر البادى وبقية الصفات الموجودة فى قومنا .

انظروا الى العامل البطىء الذى يبدو أمام أعينكم بليدا ، انه قادر على إنجاز كمية أكبر من العمل ؛ لأنه يمضى قدما ولا يتقهقر ولا ينهار .

وقارنوه بالعامل المتعجل المتوتر المشنج الذى ينهار سريعا ويصاب بنوبات من سوء المزاج وحدته ، وكثيرا ما لا تعرف أين تجده عندما تصبح حاجتك اليه ماسة ، فقد يكون فى ذلك الوقت فريسة لاحدى تلك النوبات .

اننا نقول ان كثيرا من بنى جلدتنا ينهارون ويتعين ارسالهم الى الخارج لتهدئة أعصابهم لأنهم يعملون كثيرا فوق طاقتهم .

وعندى أن هذا خطأ جسيم .

فلا طبيعة العمل ، ولا كمية العمل ، تعتبران مسئولتين عن كثرة أو حدة ما يصيبنا من الانهيار ، ولكن سبب الانهيار يكمن فى تلك الاحساسات السخيفة بالعجلة وضيق الوقت ، وفى بهر الأنفاس والتوتر والقلق البادى على محيانا ، وفى تلك الرغبة الجامحة للحصول على نتائج سريعة ، وفى فقداننا للتناغم الباطنى واليسر ، وكل تلك الصفات التى تصاحب ما نؤديه من عمل — وهى دواع وأسباب لا تعرقل الأوروبى الذى يؤدى عملنا نفسه بنسبة تسعة الى عشرة — أى ان الأوروبى يخلو من تسعة أعشار هـذه المعوقات .

هـذه الحيل المتبطرة التى لا لزوم لها ، القائمة فى اتجاهاتنا الباطنية وآدابنا ومسلكنا الخارجى التى تنتقل بالعدوى من الجو الاجتماعى من جيل لآخر على شكل تقاليد ، يتخذها كثير منا مثلا أعلى لأروع طريقة للحياة . هذه الحيل هى القشة الأخيرة التى قصمت ظهر البعير الأمريكى ، والحسك والشوك الذى جنيناه منها ، والذى تدل كميته على مبلغ ما وصلنا اليه من تعب وضنى وارهاق وبلى .

أن عددا كثيرا منا — مثلا — ينضح صوتهم بالحزن والتعب ، والبعض — حقيقة — متعبون (لأننى لا أقصد أن أنكر على الاطلاق أن لنا خاصية الاتعاب) ولكن الأغلبية العظمى منا ليسوا متعبين بتاتا ، أو لن يكونوا متعبين مطلقا لولا أننا نتحايل على تصيد الشعور بالتعب باتباع العادات السائدة للكلام والتعبير .

ولو أن صوتنا الزاعق ، وعيشنا المثير المتعجل ، كانا يمكناننا ولو من أن ننجز قدرا أكبر من العمل ، حتى لو أدى ذلك الى انهيارنا فى النهاية

لكان الأمر مختلفا ؛ اذ لكان هناك شيء من التعويض أو العذر المسوغ للاستمرار على هذا النحو .

ولكن العكس هو الصحيح تماما .

ان العامل المسترخى الهادىء الذى يؤدى عمله بسكينة ، وفى غير ما تعجل — تاركا الأمور تجرى فى أعنتها ، وليس متلهفا على النتائج — هو العامل الكفء .

أما القلق والتوتر والحاضر والمستقبل اذا اختلطت جميعها وتشابك حابلها بنابلها فى عقولنا مرة واحدة فهو أقصر الطرق المؤكدة الى تأخر تقدمنا المستمر وتعويق نجاحنا .

لقد أرسل زميلى البروفسور مونستربرج Münesterberg بعد أن استقر بيننا حديثا — وهو من أدق الناس ملاحظة — بعض ملاحظاته عن أمريكا الى الصحف الألمانية . ولب ما يقول أن مظهر النشاط غير العادى فى أمريكا سطحى وخداع وغرار ، لأنه لا يرجع لشيء سوى عادات الشد والجذب وسوء التناسق التى يرجع الفضل فيها الى التدريب المعيب لقومنا وتربيتهم السيئة .

إننى أعتقد أنه قد آن الأوان لتلك الخرافات القديمة والأساطير التى عفى عليها الزمن ، والآراء التقليدية لكى تتغير وتتبدل ، وانه اذا بدا لأى منا أن يكتب عن عدم كفاية وعجز وضعف الأمريكى فى أن يفعل بوقته شيئا سوى أن يضيعه فسيجد أن عليه أن يقيم أدلة متناقضة ، يبرهن بها على موضوع بحثه ، مشفوعة بالحقائق الكثيرة التى يقتبسها ومزودة بالتجارب العديدة التى يلجأ اليها لتأييد هذه الحقائق .

واذن — يا أصحابى — اذا كان خلقنا الأمريكى العزيز قد أصابه الضعف والوهن والكلال بسبب كل هذا التوتر الزائد على الحد — ومهما كان لديكم من احتياطى أو تحفظ — فأعتقد أنكم تتفقون على الحقائق الرئيسية ، فكيف نطب للداء ؟ وأين نلتمس العلاج ؟ .

إن العلاج يوجد طبعا حيث توجد مصادر المرض .

اذا كان اللوم يقع على عادة مرذولة ، أو ذوق ضار ، فلتتغير العادة والذوق .

وعلى الرغم من أنه ليس من الهين أن نلقح ونطعم سبعين مليونا من الناس بمستويات جديدة فاننا ينبغى أن نقر أنه اذا كنا نؤمن فعلا بضرورة ذلك ، فلابد من أدائه .

ينبغى أن نغير أنفسنا من شعب يعجب بالشد والجذب والقصف فى حد ذاتها ويزدرى الأصوات المخافتة والسبل الهادئة الساكنة ويدمغها بالبلادة الى شعب — على نقيض ذلك — يجعل الهدوء والسكينة والوقار مثله العليا ومن أجلها يحب الانسجام واليسر والترفع والكرامة .

واذن فلنعد مرة أخرى الى سيكولوچية التقليد .

هناك طريق واحد لتحسين أنفسنا وذلك بأن يخلق البعض منا مثالا يحتذيه الآخرون وينسجون على منواله ويقلدونه حتى تنتشر العادة الجديدة فى التقليد الجديد والنموذج الجديد فى طول البلاد وعرضها من شرقها الى غربها .

والبعض منا فى وضع يتيح لهم فرصة أوفر من غيرهم لكى يصطنعوا تلك المبادىء الجديدة ويستحدثوا تلك العادات ، والبعض منا أقدر من غيرهم على ذلك بما لهم من شخصيات جذابة آسرة يطيب للناس تقليدها .

بيد أنه لا يوجد شخص حى هوى الى الدرك الأسفل الذى يستحيل فيه أن يقلده غيره .

يقول ثاكارى Thackeray فى أحد مؤلفاته عن الأمة الايرلندية : انه لم يكن هناك أبدا ايرلندى بلغ من الفقر أدقعه لدرجة أنه لا يوجد من هو أفقر منه يعيش على حسابه .

وبالتأكيد لا يوجد انسان لا يتسبب سلوكه فى عدوى الغير فى معنى معين وفى جزئى خاص .

ان المعيوهين الذين يملأون مؤسساتنا العامة يقلد بعضهم البعض الآخر — ولكن فيم ؟

فى عجائب وغرائب مسلكهم .

واذا قدر لك أن تصطنع الهدوء والسكينة والتناغم فى شخصك نفسه فتستطيع أن تتأكد من أن موجة من التقليد ستنشر منك تماما كما تنتشر الدوائر الى الخارج فى حلقات ودوائر موصولة عندما تلقى بالحجر فى البحيرة .

ومن حسن الحظ أن ذلك لا يتطلب منا أن نكون روادا مطلقين ، حتى فى نيويورك الآن تألفت جماعة لتحسن طريقة النطق بالكلام والصحف العديدة تطالعنا بباكورة أعمال هذه الجماعة فى شكل فقرات الغرض منها اثارة القرف منها لكى ننبذها .

والأحسن من ذلك — لأنه أكثر شمولا وجذرية هو مبدأ الاسترخاء تلك البشرى التى تبشر بها الآنسة آنى بيسون كول Miss Annie Payson Call من أهالى بوسطن — فى مجلدها الصغير الرائع الذى أسمته

« الظفوة بالسكينة » — وهو كتاب جدير بأن يكون فى حوزة كل معلم وكل طالب فى آمريكا — من الجنسين .

إنكم لا تحتاجون الا أن تسيروا على الدرب الذى مهده لكم غيركم ، ولكن ثقوا بشىء واحد — وهو أن غيركم سيتبعونكم ويترسمون خطاكم من بعدكم .

وهذا يوصلنا الى تطبيق آخر لعلم النفس فى الحياة العملية ؛ وهو التطبيق الباقى أمامنا الذى سألفت انتباهكم اليه بايجاز ثم أختم حديثى .

إذا أراد المرء أن يكون مثالا يحتذى فى الهدوء والسكينة واليسر ، وأن تكون عدواه فعالة فى هذا الصدد ، فانه يشعر غريزيا كلما كان أقل افتعالا ارادیا لكى يقلده الغير ، وكلما كان أقل وعيا بذلك رجحت كفة نجاحه . كن الشىء الممكن التقليد وأعف عقلك من كل مسئولية للتقليد .

إن قوانين الطبيعة الاجتماعية ستتولى عنك هذه المسئولية وهـذه النتيجة .

أما المبدأ السيكولوجى الذى يرتكز عليه هذا المفهوم فهو قانون فى غاية العمق والشمول فى تكييف وتصريف حياتنا — وهو فى نفس الوقت قانون تجاهلناه نحن الأمريكيون وأغفلناه بشكل محزن جدا .

ان المنطوق الاصطلاحى لهذا القانون قوامه .. « ان الشعور الجارف حيال الذات يجنح الى القبض على الترابط الحر لأفكار الشخص الموضوعية والعمليات الحركية » .

والمثال المتطرف لهذه الظاهرة يتجلى فى المرض العقلى المسمى باللوثة (الملانخوليا) فالمريض بالسواد (الملانخوليا) يزخر من أخمص قدمه الى

قمة رأسه بانفعال حاد مؤلم حيال نفسه ؛ فهو يشعر بالتهديد ، ويدمن الشعور بالاثم ، وبأنه مقضيّ عليه بالهلاك والمحو والضياع .

وعقله يصبح كما لو كان فى قبضة كنزاز أو كلاب من هـذه المشاعر الخاصة بموقفه أو وضعه من نفسه .

وتستطيعون أن تقرأوا فى كل الكتب التى تعالج موضوع الجنـون . ان الانسياب المتنوع لأفكار المريض بالسواد (الملانخوليا) يتوقف عن التدفق ؛ أى ان عمليات الترابط عنده بالتعبير الاصطلاحى — تعتقل بالكف وأفكاره تتجمد فى نسق كمى لا تتجاوزه وتظل حبيسة وظيفتها الوحيدة المملة وهىَ التكرار الباطنى والاجترار الداخلى لحقيقة حالة الضياع واليأس التى تعتمل فى نفس المريض .

بيد أن هذا التأثير الكابت القابض ليس راجعا الى مجرد حقيقة أن انفعاله مؤلم — لأن الانفعـالات السارة عن الذات أيضا توقف ترابط أفكارنا .

ان القديس فى حالة النشوة الروحية يصبح عديم الحـركة ومعدوم الاستجابة ووحيد الفكرة ، مثله تماما كمثل « الميلانخولى » المصـاب بالالتياث .

ومالنا نذهب بعيدا ونضرب المثل بنشوة القديسين ، ونحن نعـرف ما يحدث فى كل منا عندما يعقل الفرح المفاجىء العظيم لساننا ويشـل تفكيرنا ؟

اسأل الشبان لدى مرجعهم من حفلة أو مشهد مثير أهاج مشاعرهم — عن هذا الحفل ، أو هذا المشهد ، فماذا تسمع ؟ « كانت جميلة ! — كانت جميلة ! . كانت جميلة ! » . هذا هو كل نوع الاعلام الذى يمدونك به حتى تنفثىء حدة الاثارة والتهيج وتهدأ نفوسهم من بعد تأثير عنيف .

ألم يصب كل واحد منكم ذات مرة — مؤقتا — بحالة نصف جنون من جراء نجاح ساحق أحرزه أو ثروة طارئة هبطت عليه بلا سابق انذار أو حظ عظيم واتاه ؟

« عظيم . عظيم . عظيم » . هذا هو كل ما نستطيع أن نقوله لأنفسنا فى مثل تلك اللحظات حتى نضحك من أنفسنا ومن حماقتنا ذاتها .

من كل ذلك نستطيع أن نستخلص نتيجة عملية جدا .

فاذا كنا نرغب — أساسا — فى أن تكون سلسلة مائلاتنا وارادتنا وافرة غزيرة منوعة وفعالة ، فيتحتم علينا أن نكون فى أنفسنا عادة تحريرها من التأثير الكابت الاعتقالى لها بالتفكير والتأمل فيها باستمرار وبالتمركز الأنانى الذى يشغلنا باستمرار فى التفكير فى نتائجها .

مثل هذه العادة — كغيرها من العادات — يمكن تكوينها .

إن الحصافة والواجب واعتبار الذات وانفعالات الطموح وانفعالات القلق لها بالطبع دور لازم تؤديه فى حياتنا .

ولكن أقنصِرْها بقدر الامكان على المناسبات التى تضطر فيها الى اتخاذ قرارات عامة وتحديد خططك للهجوم وأبْعِدْها عن التفاصيل .

وساعة أن تصل الى قرار حاسم ويصبح عمله واجب التنفيذ اصرف النظر عن المسئولية والاهتمام بالنتيجة اطلاقا .

وفى كلمة — أرخ العنان — وأطلق السراح لجهازك الفكرى والعملى ، ودعه يمض على سجيته حرا ، وثق أن الخدمة التى سيؤديها لك ستكون مضاعفة الجزاء .

من هم الدارسون الذين يصابون بالذعر ويصبحون كالفأر فى المصيدة عند الامتحان ؟

انهم أولئك الذين يتوقعون الإخفاق ويشعرون بالأهمية البالغة لعملية الامتحان . ومن هم أولئك الذين يجيبون الاجابة السديدة ؟

انهم أولئك الذين لا يغالون فى المبالاة . ان أفكارهم تنساب وتتدفق من ذاكرتهم من تلقاء نفسها .

لماذا نسمع تلك الشكوى التى تتردد كثيرا فى جنبات نيوانجلند من أن الحياة الاجتماعية فيها أقل وفرة ودسامة وتعبيرا وأكثر اجهادا وتعبا مما هو عليه الحال فى بقية أجزاء العالم ؟

إلام ترجع هذه الحقيقة — ان كان ثمة حقيقة ان لم يكن مردها الى الضمير المبهظ بالكظوم للناس الذين اما أن يكونوا خائفين من أن يقولوا شيئا تافها جدا وبديهيا جدا ، أو شيئا لا يؤمنون به أو شيئا لا يستحق المحادثة أو شيئا ليس كافيا ، ولا وافيا لسبب أو لآخر — بالمناسبة القائمة ؟

لا يمكن لمحادثة أن تمضى وتجرى فى هذا البحر العجاج المتلاطم الأمواج من مثل تلك المسئوليات وألوان الكبت والكف والاعتقال .

ولكن المحادثة تزدهر ، والمجتمع يتألق بالنضارة ، ولا تصبح مملة من جانب أو مجهدة ترهق الناس من أمرهم عسرا ، كلما تناسى الناس هذا الارتياب والتوجس وأرخوا العنان لقلوبهم وألسنتهم تمضى على السجية بما يشتهون .

إنهم يتحدثون كثيرا فى هذه الأيام فى الدوائر البيداجوجية عن واجب المعلم فى التحضير لكل درس مقدما .

وهذا مفيد الى حد ما .

ولكنا معشر الأمريكيين لسنا بالتأكيد من يوجه اليهم هذا الوعظ .

اننا نعرف جيدا ما نريد وما ينبغى لنـا أن نفعل . ان حرصنا لشديد ولا نحتاج الى مزيد .

أما النصيحة التى أتوجه بها الى معظم المعلمين فهى — كما جاءت على لسان واحدة — هى نفسها معلمة رائعة بارعة اذ قالت :

« أعدوا أنفسكم جيدا فى المادة بحيث تكون دائما فى متناولك وتحت تصرفك كصـنبور الماء وبعد ذلك اترك الأمر لتلقائيتك فى قاعة الدرس ولا تهتم بشىء آخر بعد ذلك » .

ونصيحتى للدارسين — خصوصا البنات — هى شىء شبيه بذلك : كما أن جنزير الدراجة قد يكون مشدودا أكثر مما يجب ، فكذلك قد يكون اهتمام الشخص وضميره مشدودين أكثر مما يجب ، ومتوترين لدرجة تعرقل انطلاق عقله وتدفق أفكاره .

خذوا مثلا الفترات التى تتلاحق فيها الامتحانات على أيام متتابعة .

إن درهما من النغم العصبى المنسجم فى الامتحان يساوى أرطالا عدة من الدراسة التى يشوبها القلق والتوتر قبيل الامتحان .

اذا أردت حقا أن تتفوق فى امتحان ما فألق بالكتاب بعيدا فى اليوم السابق للامتحان وقل لنفسك « اننى لن أضيع دقيقة واحدة أخرى على هذا الشىء التعس ، ولا أبالى مثقال ذرة سواء أنجحت أم لا » .

قل هذا باخلاص واشعر به ، ثم اخرج والعب ، أو اذهب الى فراشك ونم ملء جفنيك . أنا متأكد أن النتائج فى اليوم التالى ستشجعك على اتباع هذه الطريقة باستمرار .

لقد سمعت هذه النصيحة موجهة لاحدى الدراسات من المس كول Miss Call التى أشرت الى كتـابها عن الاسترخاء العضلى منذ برهة ،

وفى آخر كتاب لها بعنوان « كمسألة طبيعية » نجحت المؤلفة فى التبشير بالاسترخاء الأخلاقى وباسقاط الأشياء من العقل وعدم الغلو فى المبالاة حيث لا يكون لها أدنى مسوغ أو مبرر .

ليس قسيسونا ووعاظنا فقط ، ولكن أصدقاءنا من اللاهوتيين السفسطائيين والذين يشغون العقول من مختلف الملل والنحل الدينية — كل أولئك يضربون على نفس الوتر .

فاذا تعاون على ذلك الأطباء والجماعات المتعددة المختلفة المعنية بشفاء العقول ، والكتاب من أمثال المستر درسر Mr. Dresser وبرنتس ملفورد Prentice Mulford ، وهوارس فلتشر Horace Fletcher والمستر ترين Mr. Trine وجمهور المعلمين بالمدارس وانضم اليهم قراء المجلات فى ترديد هذه النغمة فانه يبدو أننا على بداية الطريق فى اتجاه تغيير عاداتنا العقلية الأمريكية الى شىء أكثر سكينة وقوة .

ان القلق يعنى دائما ، وفى مختلف الحالات ، كما للارتباطات ، وفقدانا للقوة الفعالة .

وطبعا ان سيد العلاجات للقلق هو العقيدة الدينية ، وهى مسألة تعرفونها أيضا طبعا .

ان الموجات العاتية التى تغشى سطح الماء مزمجرة عارمة لا تمس الأجزاء العميقة من المحيط ، وانما يظل القرار هادئا ساكنا . وكذلك الأمر بالقياس الى الشخص الذى يمسك بزمام كثير من الحقائق المتسعة الخالدة ، فان التقلبات المؤقتة التى تعتور سبيله ومصيره الشخصى تبدو تافهة نسبيا .

فالشخص المتدين حقا — بناء على ذلك — هو الشخص الراسخ الذى لا تهزه الأحداث — الزاخر بالسكينة وهدوء العقل ، المستعد بكل هدوء لأداء أى واجب تأتى به الأيام .

ومن أروع الأدلة على ذلك ما ورد فى مؤلف صغير قدرلى أن أقرأه حديثا وعنوانه « ممارسة وجود الله — أحسن ضابط لحياة مقدسة للأخ لورانس Brother Laurence — وهى محادثات ومراسلات لنكولاس هرمان من اللورين ترجمت من الفرنسية » (١) .

ولقد انتقيت منها بضع فقرات — حيث ان المحادثات تجرى بطريقة غير مباشرة .

كان الأخ لورانس راهبا من الرهبان التسوليين ذوى اللباس الأبيض الذين غيروا دينهم فى باريس سنة ١٦٦٦ « وقال انه كان تابعا فى خدمة م . فيبرت M. Fieubert الخازن وانه كان شخصا أخرق متلبكا يكسر كل شىء . وانه رغب فى الالتحاق بالدير ظنا منه أنه سيلقى هناك ألما شديدا من جراء تلبكه وبسبب الأخطاء التى يرتكبها ، وبذلك يضحى لله حياته بما فيها من لذائذ — ولكن الله خيب رجاءه ، اذ لم يلق الا الخذلان وعدم الرضا فى تلك الحالة .. » وانه أصيب بخبل فى عقله لمدة طويلة من جراء اعتقاد خاص بأن اللعنة ستحل به — وان الناس جميعا لا يستطيعون اقناعه بعكس ذلك«ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» ولكنه ناقش نفسه فى الموضوع وتعقله مع نفسه على النحو التالى :

لقد اندمجت فى حياة دينية من أجل حب الله فحسب . وحاولت أن أتصرف من أجله فقط — وسأظل دائما أتصرف من أجل حب الله البحت — وسأضمن هذا الخير والجزاء على الأقل ، وهو أنه حتى الموت سأكون قد فعلت كل ما فى وسعى وبذلت قصارى جهدى لأحبه .... وانه من ذلك الوقت قد عاش حياته فى حرية تامة ونعيم مقيم .

---

(١) Fleming H. Revell Company; New York.

« وانه عندما تعرض مناسبة لممارسة فضيلة فانه يتوجه الى الله بهـا قائلا : « يا الهى ، أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك مالم تهبنى المقدرة عليه» . وانه عندئذ منح قوة فوق كفايته .

وانه عندما كان يخفق فى أداء واجبه ، لم يكن يفعل شيئا سـوى الاعتراف بخطيئته قائلا لله : « لن أتصرف أبدا على خلاف ذلك ، فاذا تركتنى لنفسى فانك أنت الذى ينبغى أن يحول بينى وبين إخفاقى وتصلح ما فسد » .

وانه بعد ذلك لم يتعب نفسه بشأنها وانما سلم أمره لله تسليما .

« وانه أرسـل أخـيرا الى برجنـدى Burgundy ليشترى تموين النبيذ للجمعية ، وانها كانت مهمة لا يرحب بأدائها ، لأنه لم يكنْ حاذقا فى أعمال البيع والشراء ، ولأنه كان أعرج وانه كان عاجزا عن التجوال فى الفلك المشحون بالتدحرج من فوق البراميل ، وانه قال لله : انه خرج فى هـذه المهمة تنفيذا لارادته ومن أجل طاعته وانه بعد ذلك وجد المهمة ميسرة سهلة وانه أتقن أداءها .

وانه أرسل الى أوڤيرن Auvergne فى العام السابق للمهمة نفسها وانه لا يدرى كيف انتهت المهمة ولكنها أنجزت على أحسن وجه .

« وبنفس الطريقة فى عمله فى المطبخ (وهو عمل يكره أداءه بطبيعته) ولكنه عود نفسه أن يؤدى كل شىء حبا فى الله وبالصلاة فى كل المناسبات لكى يمنحه البركة التى تمكنه من اتقان عمله . ولقد وجد كل شىء ميسرا بمضى سخاء رخاء طوال خمسة عشر عاما قضاها فى الخدمة هناك .

« وانه كان مسرورا جدا من الوظيفة التى كان يشغلها الآن . ولكنه كان مستعدا لتركها كما ترك الوظيفة التى قبلها ، لأنه كان يدخل السرور على نفسه فى كل حالة بأن يؤدى أشياء صغيرة من أجل حب الله .

« وان لطف الله وفضله وكرمه أكدت له أنه لن يتخلى عنه كليا ، وأنه سيهبه القوة ليتحمل ما قد يمتحنه به من شر يحيق به ، وهو لذلك لا يخاف شيئا ، ولا مناسبة عنده ليستشير أحدا عن حالته . وانه عندما حاول استشارة أحد فى أمره زاد الطين عنده بلة » .

هذه البساطة القلبية والسذاجة الصادرة من الأخ الطيب لورانس ، واسترخاء كل هم وقلق فيه وتوكله على الله — منظر منعش .

لقد ظلت مطارق الوعظ بحتمية « الشعور بالمسئولية طوال اليوم » فى منطقتنا نيوانجلند — تتوالى علينا بما فيه الكفاية وأكثر ! بما فيه الكفاية وأكثر لمدة طويلة على أية حال قطعا ، ولكنها فاقت وزادت عن الحد بالقياس الى الجنس اللطيف .

إن ما تحتاج اليه الدارسات والمعلمات حاجة ماسة وملحة اليوم ، ليس المبالغة والزيادة فى توتراتهن الأخلاقية ، ولكن الاقلال منها وتهدئة نغمها العالى . كثيرا ما أخشى أن تتخذ احدى مستمعاتى من الجنس اللطيف قرارا حاسما لكى تصبح مسترخية بجد — مهما كلفها ذلك — بقية حياتها ! ولا حاجة بى الى القول بأن هذه ليست هى الطريقة المثلى لذلك . ان طريقة إحراز هذا الهدف — على الرغم مما يبدو فيها من تناقض — هو أن تكونى حقا غير مبالية بماذا اذا كنت تفعلين ذلك أم لا — ثم — بفضل الله ستجدين نفسك مرة واحدة تفعلين ذلك ، وعندما تتعلمين كيف قدر لك أن تحرزى الهدف ، وعلى أى نحو فانك (بفضل الله ثانيا) ستتمكنين من الاستمرار فى الاسترخاء وترك الأمور تجرى فى أعنتها ولا تبيتين الا خالية البال .

بهذه الرغبة التى تجيش فى صدرى أختم هذا الحديث آملا أن يمارس كل من استمع لهـذه المحاضرات هذه التجربة السعيدة الفـواحة بعبير الاسترخاء والسكينة فتعيشون بنفوس مطمئنة راضية مرضية .

الفصل الثاني

عن ظاهرة عمًى معيّن في الإنسان

ان أحكامنا على قيمة الأحياء والأشياء — كبيرة كانت أم صغيرة ، غثة أم سمينة — تتوقف على المشاعر التى تثيرها فينا .

وعندما نحكم على شيء بأنه عزيز غال — نتيجة للفكرة التى نضعه فى اطارها — فليس ذلك الا لأن الفكرة نفسها مرتبطة من قبل بشعور .

لو أننا كنا فاقدين للشعور جذريا ، وكانت الأفكار هى الأشياء الوحيدة التى يسيغها عقلنا ، لفقدنا فى لمحة عين كل رغباتنا بالقياس للى ما نحب ونكره ، وما نصبو اليه وما ننبذه ، ولأصبحنا عاجزين عن أن نصف أى موقف أو خبرة فى الحياة بأنه أكثر قيمة أو أهمية من غيره .

ان العمى الذى يصيب الناس — الذى سنعالجه فى هذا الحديث — هو العمى الذى يصيبنا جميعا ويختم على أبصارنا بغشاوة صفيقة تحول بيننا وبين رؤية مشاعر المخلوقات والناس الذين يختلفون عنا .

نحن كائنات عملية ، لكل منا وظائف محددة ، وواجبات معينة يؤديها . وكل واحد يشعر شعورا حادا بأهمية واجباته وأهمية المواقف التى تقتضيها وتدعو اليها تلك الواجبات .

بيد أن هذا الشعور — فى كل منا — سر حيوى عزيز علينا ، ننتظر من الآخرين أن يشاركونا فى الشعور به والعطف عليه ، ولكن هيهات ! ذلك أن الآخرين غارقون الى آذانهم فى أسرارهم الحيوية العزيزة عليهم لدرجة

لا تسمح لهم بمشاركتنا فى الشعور أو التعاطف مع أسرارنا الحيوية العزيزة علينا .

من هنا تنشأ سخافة آرائنا وما يصاحبها من ظلم واعتساف وجور ، ما دامت تتصل بأهمية حياة أناس غريبين عنا .

ومن هنا ينشأ الزيف فى أحكامنا ما دامت تفترض البت بطريقة مطلقة فى قيمة أحوال قوم آخرين ومثلهم العليا .

خذ مثلا العلاقة التى بيننا وبين كلابنا الذين نرتبط معهم بصلات ورباط أشد وثاقا من معظم صلاتنا الأخرى فى الحياة ، ومع ذلك — خارج نطاق هذه الصلة وهذا الرباط من الوداد ، فما أشد عنت وغباوة كل فريق بالقياس الى كل ما يهم الطرف الآخر فى الحياة ويجعل لها طعما وقيمة ومعنى عنده . هذا هو موقفنا من سرورها المفرط لمصمصة العظام فى ظلال السياج وللبصبصة بأذنابها وهى تتشمم الأشجار وتتسكع تحت أعمدة الاضاءة . وهذا هو موقفها بالقياس الى لذائذ الأدب والاستمتاع بالفن .

عندما تجلس فى استرخاء بعد عمل يوم شاق تقرأ قصة غرام مثيرة تستحوذ على كل شغفك وانتباهك ، فما حكم كلبك على سلوكك ؟ .

بكل ما فيه من حسن نية واعزاز لك فان طبيعة مسلكك تقع خارج نطاق فهمه وادراكه على الاطلاق .

كيف تجلس هنالك كالصنم الذى لا يحس ، وكان الأحرى بك أن تصحب كلبك فى نزهة قصيرة لتلقى اليه خلالها بالعصا ليلتقطها ويمسك بها ؟

ما هذا المرض العجيب الذى ينتابك كل يوم فتمسك بالأشياء وتحملق فيها بالساعات مشلول الحركة مجردا من كل حياة واعية ؟ .

ان حكم المشاهد مقضى عليه بأن يعوزه معرفة أصل المسألة ولمس الحقيقة والوصول اليها .

بيد أن الشخص موضوع الحكم يعرف جزءا من عالم الحقيقة الذى يفشل الحكم المشاهد فى تبينه — فهو يعرف أكثر والمشاهد يعرف أقل، وكلما نشب صراع فى الرأى وخلاف فى الرؤية فاننا نجنح الى الاعتقادبأن الحق فى جانب من يشعر أكثر وليس فى جانب من يشعر أقل .

دعونى أذكر لكم مثالا شخصيا من ذلك النوع الذى يصادف كلا منا يوميا :

منذ سنوات عديدة فى أثناء قيامى برحلة فى جبال كارولينا الشمالية مررت بعدد كبير من الخور — كما يسمونها فى تلك المناطق — وهى مداخل أو رءوس وديان صغيرة بين التلال — وكانت هذه الخور قد تم تمهيدها وزرعها حديثا .

وكان الانطباع على عقلى انطباعا قذرا لا خفض فيه ثقيل الوطأة على النفس .

ذلك أن كل ساكن استقر فى تلك المنطقة عمد الى قطع الأشجار التى يسهل عليه قطعها وترك جذوعها التى سودتها الشمس الحارقة — واقفة ناتئة ، أما الأشجار الكبيرة فقد زنرها وأمات نموها حتى لا تورق وتظلل المنطقة المحيطة بها . ثم بنى كوخا من الخشب وملأ شقوقه بالصلصال وأقام سياجا طويلا متعرجا حول مسرح خرابه لكى يحول بين الخنازير والماشية وبين الدخول الى ساحته . وأخيرا زرع بلا نظام المساحات الواقعة بين الجذوع المقطوعة والأشجار بالذرة الهندى الذى نبت ونما بين قطع الأخشاب الصغيرة ، وهناك سكن واستقر مع زوجته وأطفاله — وحاجاته

— من بلطة ، وبندقية ، وبضع أوان منزلية ، وبعض الخنازير التى كانت جماع ممتلكاته .

لقد تم له تدمير الغابة وتشويهها ، والتحسين الذى أدخله عليها كان تحسينا بشعا ، كان نوعا من القرحة — بدون أى عنصر من عناصر الجمال الصناعى الذى يعوض ما فقد من جمال الطبيعة .

قبيحة — حقا — كانت تبدو حياة القعيد القرفصى وهو يمخر العباب — على حد تعبير البحارة — تحت ساريات عاريات مبتدئا ثانية من النقطة التى بدأ منها أسلافنا دون أن يفيد مثقال ذرة من نتائج الحضارة والاختراعات التى تمت فى تلك الفترة التى مرت بها الأجيال المتعاقبة منذ أسلافنا الأوائل حتى اليوم .

قل ما شئت عن العودة الى الطبيعة !

هذا ما قلته لنفسى ، وقد باغتتنى الوحشة والكآبة وأنا راكب السيارة عبر هذا المنظر .

قل ما شئت عن الحياة الخلوية فى الريف عندما يتقدم بك العمر — ضمانا لك ولأولادك من بعدك !

كلا — لن يكون كذلك أبدا على رقعة أرض جرداء عارية ، وليس لك الا يدان عاريتان تخوض بهما المعركة !

كلا — لن يكون كذلك أبدا بدون أحسن ثمرات الحضارة ونتائجها لكى تدخل فى هذا النسيج !

ان ألوان الجمال والترف والنعيم التى خلفتها لنا القرون ، وذيب التراث الانسانى العظيم ، أمر مقدس .

فهو تراثنا وحقنا بالميلاد .

لا يوجد شخص متحضر يتعين عليه أن يرغب فى أن يعيش يوما فى حياته فى مثل تلك الحالة من العراء المجرد ، والبدائية المنفرة .

ثم قلت لخبير الجبال — الذى كان يسوق السيارة ويعمل دليلا لى فى الرحلة — : « أى نوع من الناس هؤلاء الذين يمهدون هذه الخور ؟ » فأجاب :

« كلنا — لأننا لن نستطيع أن نكون سعداء هنا مالم نزرع هـذه الخور » .

عندئذ شعرت بأننى أخطأت فهم الأهمية الباطنية للموقف برمته ؛ لأن اقتلاع أشجار الغابات وتمهيدها للزراعة لم يكونا ينطقان لى الا بشىء واحد هو التعرية وتجريد الطبيعة من جمالها ، وظننت أن أولئك الذين مهدوها بسواعدهم القوية وبلطهم الطيعة يحملون الشعور نفسه ، ولكنهم عندما كانوا ينظرون الى جذوع الأشجار الكريهة المنظر لم يكونوا يفكرون الا فى انتصارهم على الطبيعة فيمتلئون زهوا وفخارا واحساسا بالقوة والسيطرة عليها .

ان عروق الأخشاب والأشجار المزنرة والألواح المشطورة كانت كلها تنطق بعرق الجهد الأمين ، والكد الموصول ، والجزاء الوفاق .

وكان الكوخ ملاذا وضمانا للأمان والطمأنينة للزوجة والأطفال .

وبالاختصار فان تعرية الطبيعة وتجريدها من الجمال — الذى لم يكن بالنسبة لى سوى صورة بشعة وقعت على شبكة العين — كان بالنسبة لهم رمزا عبقا فواحا بالذكريات ، صداحا بنشيد مؤلف من نغم الواجب والكفاح والنجاح .

لقـد كنت أعمى بالقيـاس الى مائلاتهم الخاصة بظروفهم تماما كما سيكونون هم عميا بالقياس الى مائلاتى لو قدر لهم أن يلقوا نظرة عـلى حياتى الأكاديمية فى كمبردج .

مادامت سبيل حياة ما تنقل لمن يحياها شغفا — وشوقا ورغبة — فعندئذ تصبح الحياة ذات معنى أصيل ، وذات قيمة يعتز بها .

وأحيانا تكون الرغبة أكثر ارتباطا بالنشاط الحركى ، وأحيانا تكون أكثر ارتباطا بالمدركات ، وحينا آخر بالخيال ، وطورا بالفكر التأملى .

ولكن أينما وجدت وجد الشغف والرغبة ووجد الألم ووجدت الحقيقة التى تثير وتحفز ، ووجدت « الأهمية » فى معناها الحقيقى الايجابى الوحيد الدال على الحقيقة أيا كانت ، وأنى كانت .

ولقد شرح روبرت لويس ستيفنسون — Robert Louis Stevenson هذه الظاهرة بحالة اشتقها من ميدان الخيال فى مقال كتبه أعتقد أنه يستحق الخلود من ناحية جوهر حقيقته ، ومن ناحية روعة صياغته على السواء .

قال ستيفنسون ..

« حوالى أواخر سبتمبر عندما اقترب موعد الدراسة وكانت الليالى قد بدأت تظلم كنا نتقاطر من مساكننا وكل منا يحمل فانوسا من الصفيح من النوع المعروف بعين الثور .

وكان هذا الشىء شائعا جدا لدرجة أنه خلف أثرا باقيا فى تجارة بريطانيا العظمى ، وبدأ البقالون فى الوقت المناسب يزخرفون نوافذهم بنوعنا المفضل الخاص من الأجرام المضيئة .

وكنا نحملها مشدودة «بابزيم» الى الوسط فوق حزام الكريكت ، وكنا نلبس فوقها معطفا مقفلا بأزرار حسب ما تقضى به الأصول الشديدة الصارمة للعبة !

وكانت الرائحة تفوح نفاذة من نفطة الصفيح .

ولم تكن لتحترق أبدا ، وان كانت دائما تحرق أصابعنا ! ولم تكن هناك أية فائدة من استعمالها ، وانما كانت لذتها مجرد لذة وهمية تصورية ، ولم يكن يطيب لأى صبى أى شيء آخر سوى أن يحمل فانوس عين الثور تحت معطفه .

وكان الصيادون يستعملون فوانيس فى قواربهم ، وأعتقد أنهم هم الذين أوحوا الينا بهذه العادة ، ولكن فوانيسهم لم تكن من نوع عين الثور ولم نلعب أبدا صيادى سمك .

وكان رجال الشرطة يحملونها مثبتة فى أحزمتهم ، ولقد قلدناهم بلا شك فى ذلك ، بيد أننا لم ندع أننا من رجال الشرطة .

لقد راودتنا حقا فكرة اللصوص ، وكنا بالتأكيد معجبين بالقرون الماضية عندما كانت الفوانيس أكثر شيوعا ، وقرأنا بعض كتب القصص التى وجدنا الفوانيس تحتل مساحة كبيرة فيها من الأهمية .

ولكن فسرها لأى سبب وضع هذه الأسباب مجتمعة الكل فى الكل ، فان لذة هذه المسألة كانت لذة حقيقية ولم يكن الولد منا يريد شيئا آخر سوى أن يحمل فانوس عين الثور تحت معطفه .. وبحسبه ذلك .

« وعندما كان يلتقى اثنان من هذه الجحوش فيسأل أحدهما الآخر فى لهفة : « هل معك فانوسك ؟ » ويجيب الآخر فى ارتياح ورضا : « أجل » ....

تلك كانت كلمة السر ، وكانت ضرورية جدا لأنه ، نظرا لأن النظام كان يقضى بالمحافظة على مجدنا والاحتفاظ بسريته — فلا يمكن لأحد أن يتعرف حامل الفانوس الا بالرائحة (مثله تماما كمثل القط الأرقط) .

وأحيانا كان يدخل أربعة أو خمسة منا فى أحد قوارب الصيد (حمولة عشرة رجال) بلا شيء فوقهم سوى عارضات القارب ، لأن كابين السفين

كان فى العادة مغلقا — أو يختارون خنا يتكتلون فيه والريح تصفر من فوقهم .

ومن ثم تفك أزرار المعاطف وتتجلى عن فوانيس عين الثور ، وفى التلألؤ المختلف الألوان فى جنح الليل العاصف المهول وقد بعثت فيهم جلجلة وصليل صفيح الفوانيس شعورا بالمرح كمن يتبادلون الأنخاب ، كان هؤلاء السادة الأفاضل من الصغار المجدودين يقبعون معا فى ذلك الجحر البارد ، أو يتوسدون الشقوق الندية لقارب الصيد ثم يمتعون أنفسهم بالاغراق فى فاحش القول .

والويل لى اذ لا أستطيع أن أسرد بعض عينات من هذا القول !

ولكن هذا الكلام لم يكن سوى ظرف هيأته المناسبة ، وهذه الاجتماعات لم تكن سوى أحداث عارضة فى حياة حامل الفانوس .

ان جوهر هذه السعادة والغبطة كان أن تمشى وحدك فى سواد الليل البهيم ، وقد أحكمت اغلاق معطفك فوق الفانوس بحيث لا ينفذ منه شعاع . وسواء انتظمت فى مشيتك وخففت الوطء أم قرعت الأرض بخطوات تخرق بها أديمها ، فان أهم شىء هو أن تكون مجرد عمود من السواد يدلف فى الظلام ، وأن تظل طوال الوقت شاعرا فى صميم صميمك بتلك النشوة السرية الخاصة التى تعتمل فى قلبك الحنون العابث ، وهو عالم بأنه يحمل فى منطقته فانوس عين الثور ، ثم تنتشى وتغنى بسبب هذا الشعور .

لقد قيل ان شاعرا مات صغيرا واختنق فى صدر أشد النساء بلادة وبلاهة .

ولعل الأحجى أن صناجة (أقل شأنا) يظل حيا فى كل حالة تقريبا ، ويعطى لحياة صاحبه طعما ونكهة .

ان خيال الانسان الخصيب الماهر المتقلب المتنوع بما فيه من طفلية تمضى على السجية لا اصطناع فيه ولا تعمل ، هذا الخيال لم يلق الانصاف الذى هو أهل له .

ان حياة الانسان من ظاهرها الخارجى قد لا تبدو أكثر من تل أو متراس غير مشذب من الطين ، بيد أن هذا المتراس ينطوى فى باطنه على غرفة ذهبية تحتل قلبها ، حيث يسكن الانسان فى غبطة وسعادة . وعلى الرغم من أن طريقه يبدو للملاحظ الخارجى مظلما مجللا بالسواد فان عنده فانوس « عين الثور » يحمله فى طياته ويثبته فى داخله .

ان هناك قصة خرافية تكاد تلامس نخاع الحياة وصميمها ، انها قصة الناسك الذى كان يجوس خلال الغابة وسمع طائرا يشدو بأغنية فأصغى الى تطريبة أو اثنتين ، وعندما عاد الى ديره وجد نفسه غريبا عند أبوابه ، لأنه غاب عنه خمسين عاما ، ولم يكن قد بقى على قيد الحياة من رفاقه سوى واحد فقط استطاع أن يعرفه .

ان هذا الساحر الفاتن لا يغنى ويشدو فى الغابة فقط على الرغم من أنها قد تكون موطنه . ان الغابة ليست المكان الوحيد الذى يشدو فيه هذا الصداح . انه يشدو فى أكثر الأماكن كآبة وغما .

ان البخيل يسمعه ويضحك فى سره وتمضى أيامه كلحظات سارة بارة .

ولقد استطعت أن أثير شدوه وأنا قابع وحدى على تلك الألواح العارية وليس معى من أدوات سوى فانوس ذى رائحة كريهة .

ان كل الحياة — التى ليست مجرد حياة آلية — يتكون نسيجها من خيطين : البحث عن هذا الطائر والاستماع له . وهذا هو الذى يجعل من

الصعب جدا تقدير قيمة الحياة ، ويجعل لذة البحث ومتعة الاستماع مستحيلتى النقل للغير .

وهذه المعرفة بالذات ، مضافا اليها تذكر تلك الساعات الحلوة الندية الحظيظة التى غنّى فيها الطائر لنا ، هى التى تملؤها بذلك العجب والدهش عندما نولّى وجوهنا شطر صفحات الواقع .

هنالك — بالتأكيد — نجد صورة للحياة قوامها الوحل والحديد الجامد والرغبات الرخيصة والمخاوف التافهة — سواء تلك التى نخجل من تذكرها أو تلك التى لا يعنينا نسيانها — ولكنا لا نسمع حسا ولا خبرا من ذلك البلبل الصداح الذى يلتهم الوقت التهاما .

« افرضوا أننا أتينا (فى مثل تلك الحكاية الواقعية) لنشاهد حاملى الفوانيس الجالسين القرفصاء فوق تلك الألواح ، ثم وصفنا الأولاد بأنهم فى غاية البرودة ، وأن المطر كان ينهمر فوقهم كأفواه القرب ، وأن الوحشة كانت تحتوشهم ، والكآبة تحوط بهم فى هذا المكان — فليكن هذا صحيحا — وأن حديثهم كان تافها وفاحشا . وهذا صحيح أيضا لعين الملاحظ الخارجى — كان هؤلاء الأولاد مبتلين وفى غاية البرودة ، وتكتنفهم الوحشة والكآبة ، ولكن سلهم أنفسهم يقولوا لك انهم كانوا فى جنة من النعيم والسعادة قوامها فانوس ذو رائحة نفاذة كريهة .

« ودعونى أكرر لكم ثانية أن قوام سعادة الانسان غالبا ما يصعب تحديده ؛ فقد يتوقف أحيانا على مجرد قطعة صغيرة كالفانوس ، وقد يكمن فى البواطن الغامضة للسيكولوچية ، ورباطه بالعالم الخارجى يكون عندئذ أوهى من نسيج العنكبوت . بل قد يكون مقطوع الصلة به وتصبح حياة المرء الحقيقية التى يرتضيها ويتقبلها ويصبو اليها فى عالم الخيال والوهم

ولا شأن لها بالواقع الخارجى . فى مثل تلك الحالة ينساب الشعر فى عالم الباطن .

كل هذا والملاحظ الخارجى (ذلك المسكين بوثائقه وأدلته وبراهينه) فى عالم أجنبى خارجى يرصد ويحسب ويقدر ويستنتج واقعا خارجيا ليس هو الواقع الباطنى ؛ لأنك اذا اقتصرت على النظر الى الرجل ، وبنيت حكمك على ذلك فقد خدعت نفسك . انك لن ترى سوى الساق التى يستمد منها غذاءه ، ولكنه هو نفسه رابض فى أعلى الشجرة وسط تلك القبة الخضراء من الأوراق والغصون المورقة التى تسمع أنغام الريح وتعشش فيها البلابل .

والواقعية الحقيقية كانت واقعية الشعراء الذين تسلقوا وراءه وصعدوا اليه فى خفة السنجاب ورشاقته وألقوا نظرة على ذلك العالم العلوى الذى يعيش فيه .

والواقعية الحقيقية — دائما وفى كل مكان — هى واقعية الشعراء الذين يتلمسون مكمن السعادة ومربض البهجة ثم ينغمونها ويترنمون بها ويصدحون بها بأصوات تعلو على الغناء وتتفوق عليه .

فاذا افتقدنا مكمن السعادة افتقدنا كل شىء : فى سعادة العامل يكمن معنى أى عمل ، وفى لذة الأداء تتلمس معنى الأداء وقيمته . وهذا هو التفسير ، وهذا هو المسوّغ .

ان الذى لا يعرف سر الفوانيس لا يجد أى معنى لمشهد هؤلاء الأولاد فوق ظهر السفينة ، ولن يستطيع له تفسيرا ولا تعليلا .

ومن هنا ينشأ ذلك الوهم والسراب الذى تحسبه الكتب الواقعية حقيقة تبنى عليها حقائقها ، حيث تفتقد فى كل منها ذلك الشعر الشخصى ،

وذلك الجو الساحر الفاتن الأخاذ ، ذلك القوس قزح الذى يلونه الخيال ويكسو بألوانه ما يعريه « الواقع » ويضفى نبلا وروعة على الحقير التافه .

هذه الكتب الواقعية بحقائقها التى تسقط من الحياة ميتة كجلمود صخر حطه السيل من عل ، بدلا من أن تحلق فى أجواز الفضاء كالمنطاد يجوس خلال ألوان الغروب ، كل لون فيها حقيقة ، وكل منها لا يمكن تصوره ، اذ لا أحد يعيش فى الحقيقة العارية الخارجية بين الأملاح والأحماض وانما فى « واقع » تلك الغرفة الدافئة من عقله ذات النوافذ المزخرفة والسقف المزركشة والجدران ذات الطبقات » * .

هذه الفقرات هى أروع ما قرأت فى كل انتاج ستيفنسون .

« اذا افتقدنا مكمن السعادة ، افتقدنا كل شىء » ما أصدق هذا القول .

ولكن الانسان فان ، له حدوده وقيوده ، ولكل واحد منا نوع من العمل الواحد الذى يتخصص فيه .

ونظن أنه لا يمكن بذل الجهد والطاقة فى خدمة واجباتنا حيال ذلك العمل المتخصص الا بصد قلوبنا وتجميدها واغلاقها فى وجه أى شىء لا يشبه تلك الواجبات .

ان اقتصار سعادتنا على نوع واحد من المتعة ، واغلاق وايصاد أنفسنا واماتتها حيال كل شىء آخر هو الثمن الذى يتحتم علينا أن ندفعه لكى نصبح مخلوقات عمليين .

ولن ترفع غشاوة الواقع الجامد الا عن عينى حالم نرثى له ، أو فيلسوف

* "The Lantern - bearers", in the volume entitled 'Across the Plains' Abridged in the Quotation.

أو شاعر أو هيمان ، أو عندما يتحول الرجل العملى العادى الى عاشق ولهان . عندئذ تومض البصيرة فتنفذ الى عالم الاخراج ، كما أسماه كليفورد Clifford — ذلك العالم الشاسع الواسع للحياة الباطنية التى تختلف جدا عن مظهرها الخارجى — هذا الوميض ينير عقولنا .

ثم يختلط عندنا كل ميزان القيم المألوفة وتتبعثر أنفسنا شذر مذر ، وتنفجر اهتماماتها الضيقة وتتناثر ويختفى أفقنا الضيق ويتعين علينا أن نصطنع مركزا جديدا واتجاها جديدا .

ولقد أحسن زميلى جوزياه رويس Josiah Royce وصف هذا التغيير بأن قال :

« ما هو اذن جارنا ؟ لقد اعتبرت شعوره وتفكيره — مختلفين عن شعورك وتفكيرك ، وقلت لنفسك (ان الألم فيه ليس كالألم فىّ ولكنه شىء يسهل عليه احتماله) . انه يبدو لك كما لو كان أقل حياة منك ، فحياته باردة باهتة ، ونارها خامدة بالقياس الى رغبتك المتأججة وعلى هذا النحو المعتم ، وبالغريزة عشت مع جارك دون أن تعرفه لكونك أعمى . لقد جعلت منه شيئا لا ذاتا نابضة بالحياة . اطرح هذا الوهم وألقه وراءك ظهريا ، وحاول أن تعرف الحقيقة ببساطة . ان الألم هو الألم ، والسعادة هى السعادة ، أيا كانت وأنى كانت ، حتى مثلما تكون فيك .

فى كل أغنية من أغانى طيور الغابة
وفى كل صرخة من صرخات الجرحى
وفى كل أنة من أنات المحتضر
وهم يصارعون الموت فى قبضه الآسر
فى البحر العجاج المتلاطم الأمواج الذى لا قرار له ولا حد

حيث تعيش ملايين الأحياء المائية وتموت

وسط جموع الهمج والمتوحشين

فى المرض والألم

فى التهلل والأمل

فى كل مكان من أسفل سافلين الى أعلى عليين ... من الحضيض الى أعلى منسوب للرفعة

من أحطّ الناس وأدناهم ... الى أنبلهم وأشرفهم

تعتمل نفس الرغبة الجياشة الواعية بالحياة

التى تتعدد صورها وصنوفها ومظاهرها بقدر

ما فى العالم من كائنات حية

وهى رغبة لا تنطفىء كالشمس

وحقيقية كالنبضات التى ينبض بها قلبك الآن ... قلبك الصغير الأنانى

ارفع الغشاوة عن عينيك والحجب الصفيقة عن بصرك وبصيرتك وعاين هذه الحياة

ثم حول وجهك وانسها بقدر ما تستطيع

ولكن اذا كنت قد علمت وعرفت فقد بدأت تدرك واجبك وتعرفه *

هذه الرؤية العلوية للمعنى الباطنى فيما لم ندركه — حتى اللحظة التى رفعنا فيها الغشاوة الا بالطريقة الخارجية الميتة الجامدة فحسب — كثيرا ما تباغت الشخص فجأة وعندما تفاجئه تكون نقطة تحول فى تاريخ حياته .

* The Religious Aspect of Philosophy, pp. 157-162 (abridged).

فكما يقول امرسون Emerson :

« يوجد عمق فى تلك اللحظات — يجبرنا على أن ننسب اليها حقيقة أكثر مما ننسبه الى كل الخبرات الأخرى . ان شهوة الحب تهز المرء كالانفجار .

وقد يوقظ تصرف ما ، أو حادث معين ، توبيخ الضمير فى آخر أيامه ، بعد أن ظل معلقا غائما كالسحاب فى طوايا نفسه » .

هذا الاحساس الغامض (الصوفى) للمعنى الخفى يبدأ فينا غالبا من تفاعلنا مع الأشياء الطبيعية غير الحية .

ولقد اقتبست لكم فقرة من أوبرمان Obermann — وهى قصة فرنسية كانت ذائعة الصيت فى أيامها ..

« باريس فى ٧ من مارس . — كان الظلام مخيما ، والجو باردا ، وكنت أحس بالانقباض . وكنت أسير على غير هدى وبلا هدف ، اذ لم يكن عندى أى شىء آخر أعمله . ومررت ببعض أزهار برزت نهودها فوق حائط . كان هناك النرجس فى أوج ازهاره . انه أقوى تعبير عن الرغبة ، فقد كان أول شذا يعطر الوجود فى السنة . شعرت بكل السعادة التى قدر للانسان أن تغمره .

هذا النغم الصامت الذى تتناجى به الأرواح — هذا الطيف للعالم المثالى — انبثق فىّ كاملا .

لم يسبق لى من قبل أن شعرت أبدا بشىء يفوق هذا الشعور عظمة وتلقائية .

لم أدر أى شكل أو شبه أو سر فى العلاقة جعلنى أرى فى هذه الزهرة

جمالا لا حد له . ولن أحبس فى مفهوم أو ادراك هذه القوة ... هذا الكبثر الذى لا يقاس ولا شيء يقدر على التعبير عنه .

هذا الشكل الذى لا يستطيع أى شيء أن يحتويه ، هذا المثل الأعلى لعالم أفضل الذى يحس به المرء من صميم صميمه والذى يبدو كما لو أن الطبيعة نفسها لم تصنعه ، أو تصغه ، أو تشكله * .

ان الشاعر وردزورث Wordsworth والشاعر شيلى Shelley زاخران — أيضا — بهـــذا الاحساس العميق بالمعنى اللانهائى فى الطبيعة . لقد كان هذا الاحساس عند وردزورث — معنى خلقيا صارما — « انشراحا مستوحشا » .

To every natural form rock, fruit or flower,
Even the loose stones that cover the highway
I gave a moral life : I saw them feel
Or linked them with some feeling : the great mass
Lay bedded in some quickening soul, and all
That I beheld respired with inward meaning.

لكل شكل وخلقة طبيعية — الصخر والفاكهة والزهر
حتى الأحجار التى تغطى الطريق
وهبت لكل منها حياة خلقية
لقد رأيتها تشعر أو قرتنها بشعور ما .
هذه الكتلة الهائلة الراقدة فى روح نابضة
وكل ما شهدت كان يتنفس بمعنى باطنى
« الأخبار الصادقة الحقيقية للأشياء الخفية » * .

أما أهمية هذا الوجود الخفى للطبيعة الذى خلب لب وردزورث ومشى يسعى فى غمرة نوره يجوبَ الوديان أياما متتالية — فان الشاعر لم يستطع أن يفسره منطقيا فى مفاهيم محددة ومدركات محدودة .

* De S'enancour: Obermann; Lettre xxx.
* The Prelude; Book III.

ولكن القارىء الذى أحس بنفسه هذه اللحظات الوامضة الشبيهة بما أحس به وردزورث ، فان الأشعار التى يقر فيها الشاعر بحقيقتها بكل بساطة ، تحمل له سندا قويا يثلج صدره :

« ما أبهى شروق الصباح فى موكبه المتأبّه الخالد .
مجيد وجليل مجدا وجلالا لم أشهدهما أبدا من قبل
ومن أمامه يسجد له البحر ضاحكا من بعيد
وقد اصطبغت بلون الحنطة وسبحت فى الضوء الباهى الآسر
ومن حوله الجبال الصم الشم تلمع كالسحب
وفى المروج الخضراء والأراضى المنخفضة
انبثقت كل عذوبة وحلاوة فجر جديد
زاخر بالندى والبخار وأهازيج الطيور
نابض بالعمال فى طريقهم الى الحقول
آه يا صاحبى — هل هناك ضرورة لأن أقول
ان قلبى قد امتلأ وفاض
لم آخذ على نفسى عهودا ولا مواثيق
وانما جاءتنى العهود والمواثيق
وثاقا خفيا لا أعرف كنهه
يلزمنى بأن أكون روحا تكرس هذه القداسة
والا فقد أثمت اثما عظيما
ومضيت الى غايتى فى نعيم حلو طهور شكور
ما زال يضىء نفسى وينير لها السبيل » * .

* The Prelude; Book IV.

وعندما مضى وردزورث الى غايته وقد امتلأت نفسه بهذا الفيض الزاخر من البهجة الباطنية — مستجيبا للحياة الخفية للطبيعة من حوله — فلابد أن جيرانه الريفيين وقد شغلتهم شئونهم واحتوشتهم آفاقهم الضيقة من محصول وخراف وسياج ظنوا بعقله الظنون ووجدوا فيه شخصا عديم الأهمية . ومن المؤكد أن أحـدا منهم لم يحاول أن يستوضح ما كان يدور فى باطنه أو يستجلى كنه قيمة شعوره واحساسه .

ومع ذلك فان هذه الحياة الباطنية حملت عبء معان واهتمامات غذت وما زالت تغذى حتى اليوم أرواح الآخرين وتملؤهم بالبهجة الباطنية .

لقـد كتب رتشارد چيفريز Richard Jefferies كتابا رائعا أودعه تاريخ حياته بعنوان « قصة قلبى » The Story of my Heart تحدث فيها فى صفحات كثيرة عن النشوة التى زخرت بها نفسه فى شبابه من احساسه بحياة الطبيعة .

وهذا ما قاله وهو واقف فوق قمة أحد التلال :

« كنت وحيدا تماما مع الشمس والأرض،وحينما كنت مستلقيا على العشب تحدثت فى روحى مع الأرض والشمس والهواء والبحر المترامى الأطراف — هذا الشعور الجارف الذى غمرنى ورفعنى وهذا الرباط الوثيق بينى وبين الأرض والشمس والهواء والسماء والنجوم المختفية وراء الضوء — والمحيط — لا سبيل الى وصف احساسى العميق به أو تدبيج شعورى الفياض وتسطيره .

لقد صليت معها كما لو كانت مفاتيح لمغاليق النفس

ان عظمة الشمس بضوئها الحارق

والأرض القوية — الأرض العزيزة

والسماء الدافئة
والهــواء النقى
وتخيلى للمحيط بجبروته
ملأت نفسى جميعها بجمال لا سبيل الى التعبير عنه
وبنشوة وبشغف مذهل وبسمو يرفعنى
ومع السمو أيضا رددت صلاتى

هذه الصلاة — هذا الانفعال الروحى — لم تكن صلاة لشىء وانما كانت نشوة .

لقد دفنت وجهى فى العشب ، وبسطت جسمى ومددته ، وذابت نفسى فى الغمرة ، ثم أسرى بى بعيدا بعيدا ..

فلو مر علىّ عندئذ راع من الرعاة ، وتصادف أن رآنى مكبا على وجهى ممددا على الكلأ لظن أننى غارق فى سبات عميق أرتاح بضــع دقائق اذ لم تكن حالتى تفصح خارجيا عما يعتمل فيها داخليا .

من ذا الذى كان يتصور عندئذ دوامة النشوة أو الغمرة التى كانت تعتمل فى وأنا مستلق هنالك ؟ » *

لا شك أنها كانت ساعة ضائعة من عمرك اذا قيست بالمقاييس الدراجة الشائعة للقيمة التجارية !

ولكن — فى أى نوع آخر من القيمة يمكن لأى ساعة قيمة ثمينة أن تكون ثمينة قيمة بأى مقياس — ان لم تتكون من مشاعر وآحاسيس جياشة بالمعانى العظيمة ، وفواحة بالنشوة الروحية التى تتولد فى المرء بما تحتويه الساعة ؟

* Op cit.; Boston; Roberts; 1883,; pp: 5;6:

ولكن جلبة مشاغلنا العملية تعمينا وتميت قلوبنا حيال كل شئون الدنيا الأخرى ، لدرجة أنه يبدو كما لو كان من الضرورى أن يصبح المرء عديم القيمة كانسان عملى ، اذا قدر له أن يوسع أفقه ويعمق بصيرته فى عالم الأشياء ذات القيم التى من هذا النوع الاستبطانى ، وأن يكون لديه ادراك عميق بمعنى الحياة على نطاق واسع موضوعى .

لا يستطيع ذلك الا الصوفى والحالم والتائه المعتر والخائب المفلس ، هؤلاء فقط هم الذين يقدرون على التمتع باحتراف هـذا العمل ، وهو عمل سيغير المقاييس المألوفة للقيمة الانسانية فى لمحة عين واضعا الجنون والجهل والحماقة والذهول فوق القوة وقبلها فى الترتيب ، وهابطا — فى دقيقة واحدة — بكل المزايا والاحرازات التى يفنى الرجل الاعتيادى عمره فى بنائها وانشائها . انك تستطيع أن تكون نبيا على هذا المنسوب ، ولكنك لن تستطيع احراز نجاح دنيوى .

كثير منا يعدون والت هويتمان Walt Whitman مثلا — نبيا معاصرا .

فهو يلغى كل الفروق البشرية التى تفرق بين الناس ، ويضع حلولا لكل مشكلات العرف السائد والتقاليد السارية ، ولا يحب أن يحفل بأى شىء ينسب الى الانسان سوى تلك الأشياء الأولية الشـائعة بين بنى البشر جميعا .

لذلك يصبح تائها خائبا ، من ذلك النوع الذى يعتلى سطوح الامنيبوس والبواخر ويعتبر شخصا عديم القيمة غير منتج عمليا أو عقليا .

أما أشعاره فليست سوى افرازات . مجرد نداءات أو دعوات بلا فعل أو فاعل . سلسلة متتابعة من حروف النداء على نطاق واسع .

لقد شعر هويتمان بالجماعة الإنسانية بالنشوة نفسها التى أحس بها وردزورث حيال الجبال ، أحس بها هويتمان كوجود طاغى المعنى والأهمية ، واستغراق العقل فيها ينبغى أن يكون كافيا وشغلا شاغلا ، يكفى ويستحق أن يملأ أيام رجل جاد .

وعندما اجتاز هويتمان معبر بروكلين فهذا ما شعر به :

مد" الفيضان من تحتى — ألاحظك وجها لوجه

سحب الغروب ! لم يبق على مغيب الشمس سوى نصف ساعة

أراك أيضا وجها لوجه .

جموع الرجال والنساء مكتسين بملابسهم العادية

ما أغرب منظركم فى عينى

ان الآلاف والآلاف التى تجتاز المعبر على ظهر المواخر

عائدين الى بيوتهم — يثيرون فى نفسى العجب والغرابة أكثر مما تتصورون .

وأنتم يا من ستعبرون من شاطىء لشاطىء

آخرون سيدخلون بوابات الماخرة ويعبرون من شاطىء لشاطىء

من هنا لسنين — أعز عندى وتشغلون بالى أكثر مما تظنون .

وآخرون سيرقبون جريان مد الفيضان .

وآخرون سيرون حركة سفن مانهاتن شمالا وغربا

وأعالى بروكلين الى الجنوب والشرق

وآخرون سيرون الجزر صغيرها وكبيرها

من الآن الى ما بعد خمسين سنة سيراها آخرون وهم يعبرون

والشمس تميل الى مغربها .

من الآن الى ما بعد مائة أو ما بعد مئات السنين سيراهم آخرون

وسيتمتعون بمنظر غروب الشمس وتدفق المد
وانحسار الجزر
فلا الزمان ولا المكان ، ولا البعد ، بقادرة على تغيير المنظر
فكما تشعر عندما تنظر الى النهر والسماء ، فكذلك شعرت
وكما أن أى واحد منكم فرد فى جماعة حية نابضة
فكذلك كنت
وكما أن منظر فرح النهر وانسيابه كاللجين ينعشكم
فكذلك كان ينعشنى
وكما تقفون متكئين على الحاجز — ومع ذلك تمضى
سراعا مع سرعة التيار
فكذلك وقفت ومضت سراعا ...
وكما تشاهد ساريات السفن التى لا يحصيها عد
ومداخن المواخر الغليظة
فكذلك شاهدتها
لقد عبرت النهر مرات كثيرة .... كثيرة
وقد مالت الشمس الى مغربها
لقد راقبت طيور البحر على مدار العام
رأيتها تسبح فى الهواء ثم تستقر على علو لا يطرف لها جناح وانما تهتز أجسامها
ورأيت كيف ينير الوميض الأصفر أجزاء من جسومها
تاركا بقية الأجزاء فى ظلال ثقيلة
رأيت الدوائر البطيئة تدور كالعجلات
وهى تنحدر صوب الجنوب رويدا رويدا

رأيت الأشرعة البيضاء للسفن ذات الساريتين
وللسفن ذات السارية الواحدة
ورأيت القوارب والسفن راسيات
والبحارة وهم يعملون فى جهاز السفينة
أو يصعدون الساريات
رأيت الأمواج وقد انعكس عليها الشفق
رأيت المغارف ورأيت القنابر وهى تمرح
وكلما بعدت الماخرة .... ازداد الظلام شيئا فشيئا
ان الحيطان الداكنة للمتاجر قرب الموانى
على الشواطىء القريبة
وألسنة النيران وهى تندلع من القمائن
لتدخل فى جوف الليل
وقد ألقت لألاءها من السواد على شقوق الطرق .
هذه كلها — وكل ما عداها — كانت هى الأشياء نفسها لى كما هى لكم * .

وهكذا يمضى الشاعر فى بقية قصيدته الجميلة القدسية التكهنية .

واذا أردت أن ترى ما اعتبره هذا الأشيب الجواب أعظم وسيلة تجدر به ليفيد من فرص الوجود ونعمه السابغة فاقرأ المجلد اللذيذ السائغ الذى يحوى مراسلاته لسائق عربة شاب اتخذه صديقا :

نيويورك فى التاسع من أكتوبر سنة ١٨٦٨

عزيزى بيت "Pete'

« ان الجو رائع هنا فى الصباح زاخر بالرونق والبرودة . لقد غادرت

* معبر بروكلين Crossing Brooklyn Ferry (Abridged)

مسكنى فى الصباح الباكر لأتمشى قليلا على شاطىء النهر الذى لا يبعد عن مسكنى الا بميدانين .

أتسمح لى أن أخبرك عن حياتى ولو لمجرد ملء هذه الصفحات ؟ اننى فى العادة أقضى فترة الصباح الى الظهيرة فى غرفتى أكتب ، ثم آخذ حماما ، ثم أخرج حوالى الساعة الثانية عشرة أتسكع فى أى مكان أو أزور صديقا ، أو أذهب الى قلب المدينة لبعض شأنى . وأحيانا اذا كان الجو لطيفا أركب مع صديق لى فى سيارته ونجوب برودواى من الشارع الثالث والعشرين الى بولنج جرين Bowling Green ثلاثة أميال ذهابا وثلاثة أميال أخرى ايابا .

(وكل يوم أجده زاخرا بدواعى العمل ، وكل ساعة أجد فيها ما يشغلنى) — انك تعلم أنها متعة لا تنفد ، ودراسة وترفيه أن تركب لمدة ساعتين بعد الظهر على احدى مركبات برودواى على هذا النحو .

انك ترى كل شىء أثناء مرورك — منظر حى نابض لا ينتهى — متاجر ، ومبان فاخرة ، وواجهات ، ونوافذ عظيمة . وعلى جانبى الطريق أطورة واسعة تخطر عليها جماعات من النساء وقد لبسن أبهى الملابس وأغلاها — ولا ينقطع مرورهن .

هذا الجمهور يختلف تماما فهو أرقى وأروع فى شكله وموضوعه من أى جمهور آخر يمكن رؤيته فى أى مكان آخر ، فى الحقيقة تيار — بلغ حد الكمال — من الناس — والرجال أيضا يرتدون ملابس فى منتهى الرشاقة والوجاهة — وعدد كبير من الأجانب .

أما فى الشوارع فانك ترى سيلا لا ينقطع من العربات والمركبات وعجلات النقل والمركبات الخاصة بالفنادق والمركبات الخصوصية . وفى

الحقيقة كل أنواع المركبات والعجلات ، وكثير من فرق الدرجة الأولى ميلا بعد ميل .

إن روعة هذا الشارع العظيم بما فيه من مبان شاهقة رائعة نبيلة ، كثير منها مبنى من الرخام الأبيض ، الى جانب ما يزخر به هذا الشارع من حركة ومرح على الجانبين ....

كل هذا — ينبغى ألا يثير اندهاشك اذا علمت الى أى حد يفتننى ويخلب لبى عندما أنعم برؤيته فى يوم جميل شائق رائق خصوصا وأنت تعلم مبلغ شغفى بالتسكع . ان المتسكع من أمثالى يجد لذة مضاعفة فى رؤية الحياة الصاخبة تنبض بالحياة من حوله وتبدى مفاتنها وتبرز جاذبيتها لمتعته فى الوقت الذى يمضى فيه على سجيته ولا يفعل شيئا أكثر من أن ينظر ويلاحظ ويراقب * .

حقا انها طريقة لا جدوى منها ولا نفع فى تمضية الوقت — هذا ما يقوله البعض منكم — وهى لا تليق برجل راشد قد وخط الشيب رأسه .

ولكن — من أعمق وجهات النظر وأبعدها غورا — من الذى يعرف من الحقيقة أكثر ؟ ومن الذى يعرف من الحقيقة أقل ؟ أهو هويتمان فى أعلى مركبته المفعمة نفسه بالبهجة الباطنية التى يوحى اليه بها هذا المشهد الفريد ؟ أم أنتم الذين تمتلىء نفوسكم ازدراء لتفاهة ما تثيره فيه مهنته ؟ .

ان المواطن العادى البروكلينى أو النيويوركى الذى يعيش حياة محشوة ومفعمة ، بل ومكتظة بالترف أو الذى يشعر بالملل والتعب والقلق على شئونه الشخصية ، هذا المواطن العادى عندما يعبر النهر أو يجتاز برودواى راجلا أو راكبا — فان خياله « لا يحلق بعيدا فى ألوان الغروب » — مثلما يفعل هويتمان — ولا هو بقادر على أن يدرك باطنيا الحقيقة التى لا جدال فيها

* Calamus, Boston; 1897; pp. 41; 42.

وهى أن هذا العالم لم يحو من قبل أبدا ، ولا فى أى وقت قدرا أكبر من هذه القدسية الآسرة أو المعنى الخالد مما هو كامن فيما ينبسط أمام عينيه اللتين تمران عليها مر الغفلة والاغفال .

هنالك كانت الحياة . وهنالك على بعد خطوات منها يقوم الموت . هنالك كان الجمال الفريد الفذ الذى تجتليه العين ولا شىء سواه .

هنالك الكفاح الانسانى الموصول ، والى جانبه ثمرات هذا الكفاح .

هنالك النص والموعظة — الحقيقى والمثالى — مندمجان فى واحد ..

ولكن العين الكليلة العييّة لا تجد فى كل ذلك الا خمودا وجمودا ومواتا ولا تشعر حياله الا بالتقزز والسطحية والدارجية .

« صه . انه لمنظر محزن يذكى لهيب الأسى ، ويثير الشجون » . هذا ما قاله كارليل carlyle وهو يمشى ذات ليلة مع صديق له يشير بيده الى السماء لافتا نظر كارليل الى روعتها الأخاذة .

وهذا التكرار ذاته لهذا المنظر للأجيال المتعاقبة جيلا وراء الآخر فى تتابع موصول — هذا التكرار الخالد لنظام الكون الذى يملأ نفس هويتمان بالرضا الصوفى — ولا يعنى بالنسبة لشوبنهاور schopenhauer المعبأ بالمخدر الانفعالى وبالشعور « بالفراغ الباطنى المخيف » الذى يرى منه كل شىء — هذا التكرار الخالد — عند أمثال شوبنهاور العنصر الرئيسى للملل والسأم الذى يشيعه .

« ما هى الحياة على أوسع نطاقها ؟ » يتساءل شوبنهاور : « انها ليست سوى الخواء الأجوف المتكرر — الكلب الذى ينبح — الذبابة التى تطن الى أبد الآبدين » .

بيد أن نوع النسيج الذى تتكون منه تلك التوافه الخاوية هو المادة التى تنسج منها كل متع الحياة ومعانيها ومباهجها التى كانت وما زالت وستظل قوام هذه الحياة .

فكونك تنتشى بتيقظ وانتباه وشغف وصبر وارتضاء — مثل هويتمان — بمشهد الوجود الانسانى فى حد ذاته وحسب — هو إحدى السبل — بل أعظم السبل طرا — للاعتراف بشعور المرء بأهمية وقيمة الوجود ، تلك الأهمية التى لا يمكن سبر غورها وتلك القيمة التى لا قرار لها .

ولكن كيف يمكن للمرء أن يستشعر احساسا بالقيمة الحيوية لخبرة ما — اذا لم يمارس هذه الخبرة بادىء ذى بدء ؟

لا يوجد صك تستطيع أن تضمن به ذلك ، ولا أثر يتعين عليك اقتفاؤه .

فلكونها سرا وتصوفا علويا ، فان الاحساس بها غالبا ما يأتيك بطرق غامضة صوفية لا تتوقعها .

انها أحيانا تنبجس من القبر نفسه الذى خيل الينا أننا دفنا فيه سعادتنا .

ان بنفنوتو سيلليني Benvenuto cellini بعد حياة قضاها كلها فى الهواء الطلق تحت ضوء الشمس — حياة كلها مغامرات ومتع فنية — وجد نفسه فجأة مرميا حبيسا فى زنزانة فى قصر سان انجلو san Angelo ، وكان المكان فظيعا بشعا يزخر بالفيران والرطوبة والعفن ، ثم تكسر ساقه وتتساقط أسنانه من داء الأسقربوط ، ولكن أفكاره تتجه الى الله — على نحو لم يسبق له من قبل — ثم يلوذ بالانجيل فيقرأه خلال الساعة الأولى من كل أربع وعشرين ساعة حينما ينفذ شعاع ضئيل الى محبسه يحمل معه بصيصا من النور . واذا بالملائكة يؤنسون وحشته . هكذا وجدهم فى الرؤى الدينية التى بددت وحشته ، ثم يترنم بالمزامير ويرتلها ترتيلا ويؤلف

ترانيم من عنده . وفى اليوم الأخير من يوليو — وهو يفكر فى مناسبة هذا اليوم المجيد — وفى أعياد الذكرى التى تقام فيه فى روما فى صباح اليوم يقول سيللينى فى نفسه : « لقد احتفلت بذكرى هذا اليوم طوال الأعوام الماضية بأباطيل وأضاليل هذا العالم . أما من هذا العام فصاعدا فسأحتفل فيه بجلال الله وقدسيته » وعندئذ قال لنفسه : « كم أنا أسعد حالا لحياتى الراهنة مما كنت عليه بكل هذه الذكريات الماضية » .

بيد أن الفاهم العظيم لكل تلك الأحاسيس من المد والجزر هو تولستوى Tolstoi ، فقصصه كلها تنبض بها وتفيض .

وفى قصته « الحرب والسلام » — نجد أن البطل بيتر Peter وهو المفروض أنه أغنى رجل فى الامبراطورية الروسية يؤخذ أسيرا فى أثناء الغزو الفرنسى وقد نهكه الانسحاب الطويل أثناء التقهقر .

والبرد والحشرات الخبيثة والجوع وكل صنوف البؤس والشقاء أناخت عليه بكلكلها ، ولكن النتيجة هى اقشاع الغشاوة عن عينيه . لقد عرف الميزان الحقيقى لقيم الحياة .

« هنا فقط ولأول مرة استشعر (لأنه كان محروما منها) سعادة ومتعة الأكل عندما يكون جائعا ، والارتواء عندما يكون عطشان ، والنوم عندما يكون راغبا فى النوم ، والكلام عندما يحس برغبة فى تبادل بضع كلمات ..

وفيما بعد فى حياته كان يحس بمتعة عظيمة عندما يعود بذاكرته الى ذلك الشهر من الأسر ولم يتخل قط عن الكلام بحماسة وشغف عن قوة المشاعر والأحاسيس التى لا تمحى وبخاصة تلك الطمأنينة والهدوء والسكينة الخلقية التى شاعت فى نفسه ابان تلك الفترة .

وفى فجر اليوم التالى لأسره رأى (أنا أوجز هنا وصف تولستوى) الجبال بمنحدراتها تختفى فى ظلال الضباب الضارب الى الشيب وعندما شعر بالنسيم البارد يحتضنه عنـدما رأى الضوء يبدد الأبخرة والشمس تشرق بجلالها وراء السحب والقباب والصلبان والندى والأبعاد والنهر يتلألأ سابحا فى الأشعة المرحة — عندما رأى كل ذلك فاض قلبه بالانفعال والعاطفة ، وظلت هذه العاطفة تلازمه باستمرار ثم تضاعفت مئات المرات كلما ازدادت خطوبه ، وأطبقت عليه المشكلات وأخذت بخناقه المصاعب .. لقد تعلم أن السعادة فى مقدور الانسان ، وأن تلك السعادة موجودة فى الانسان ذاته — فى اشباع الحاجات اليومية لوجوده — وان الشقاء هو المصير والخاتمة القاضية ... ليست لحاجتنا ، ولكن للطفرة والوفرة والبطر .. وعندما خيّم السكون على المعتقل وخفتت النيران وتحولت الى رمـاد شيئا فشيئا ، كان القمر قد اكتمل فى أوج ارتفاعه ، كانت الغابات والمزارع راقدة فى حضن الطبيعة وقد كساها ضوء القمر وغمرها بنوره ، وسبح المنظر الى الأفق اللانهائى .

ثم رمى بيتر ببصره الى القبة الزرقاء وقد تلألأت بالنجوم ثم فكر فى نفسه قائلا : « كل هذا لى — كل هذا فىّ — كل هذا هو أنا — وأنا هو ذلك الذى ظنوا أنهم أخذوه أسيرا وأنا هو ذلك الذى حبسوه فى كوخ » . ثم ابتسم راضيا واتجه الى حيث يرقد رفاقه ونام الى جوارهم .

ان المناسبة والخبرة اذن — ليستا شيئا . والأمر كله متوقف على قدرة الروح على أن تنتشى وأن تندغم تيارات الحياة فيها وتندمج وتذوب فيما وهبته .

« بينما كنت أعبر منقع وحل مليئا بالثلوج فى الغسق تحت الغمام ، دون أن يكون عندى أى تفكير فى حظ حسن بنوع خاص ، تمتعت بنشوة

بلغت حد الكمال .. أنا سعيد الى حافة الخوف » * .

ان الحياة تستحق العيش دائما .. اذا توافرت لدى المرء هذه الأحاسيس المتجـاوبة .

ولكن نحن الطبقة ذات التعليم الراقى (هكذا نسمى) قد بعدنا — بعدنا جدا عن الطبيعة .

لقد تدربنا على البحث عن النادر والغريب واختيار النفيس الذى لا مثيل له ، وتجاهل واغفال العادى الشائع المألوف .

اننا محشوون بالمفاهيم المجردة ، ولساننا ذرب ينطلق بالكلام الأجوف والألفاظ الكثيرة المترادفة . ومن طول ممارستنا لهذه القـدرات الرفيعة والوظائف العالية — تجف فينا وتتيبس المصادر الخاصة بالمتع المرتبطة بقدراتنا العادية ووظائفنا الطبيعية . وتنسدل الغشاوة على أعيننا والحجب الصفيقة على بصائرنا فلا نرى العناصر الأولية للحياة ولا نبصر ما فيها من خير وبهجة وامتاع .

إن العلاج — فى هذه الظروف والأحوال — هو النزول الى مستوى أكثر عمقا والهبوط الى منسوب أكثر بدائية . ان الكوارث كثيرا ما تكشف عن خير الحيـاة لكثير من جهابذة العلم المتشائمين — فاذا ما سـجنوا أو انكسرت بهم السفينة فى عرض البحر أو جندوا اجباريا ، فقد تفعل تلك الخبرات فى نفوسهم فعل السحر وتكشف لهم الى الأبد عما فى الحيـاة من خير لم يدركوه من قبل .

إن الحياة فى الهواء الطلق وعلى الأرض تجعل قصبة الميزان المائلة الى جانب واحد ترتفع ببطء الى خط المنسوب المستوى وتحدث موازنة بين الاحساسات الجارفة الجياشة فى نواح ، وبين بلادة الاحساس أو انعدامه

* La Guerre et la Paix. Paris, 1884 Vol. iii; pp. 268; 275; 316.

فى نواح أخرى . فلا تشيل كفة احداهما وتهبط الأخرى ، وانما تتوازنان وتستويان .

عندئذ يتوارى ويتلاشى كل ما فى الخطط المصطنعة — وما يصاحبها من « حميات » — من خير ويزداد وينمو الخير المنبثق من النظر والشم والذوق والنوم والاقتحام والخوض والتجاسر والعناية بالجسم .

ان المتوحشين وأبناء الطبيعة الذين نعتقد أننا أرقى منهم يحيون — بالتأكيد — حيث نموت نحن فى تلك « الجوهريات » التى لو قدر لهم أن يكتبوا عنها بطلاقة كما نفعل — لتلوا علينا محاضرات رائعة مؤثرة عن قلة حيلتنا ونفاد صبرنا فى تحسين حياتنا وعما فينا من عمى حيال الخيرات الأساسية النابتة فى الحياة .

« آه يا صاحبى ! قال رئيس احدى تلك القبائل الهمج لضيفه الأبيض : « انكم لن تتذوقوا أبدا سعادة عدم التفكير فى أى شىء وعدم أداء أى عمل ، فهذه السعادة — بعد النوم — هى ألذ الأمور وأشهاها وأكثرها سحرا وافتتانا لنا . لقد كنا كذلك قبل أن نولد وسنكون كذلك بعد أن نموت ، ان قومك ... بمجرد أن يجنوا الحصاد من أرض يبدأون فى حرث غيرها — واذا لم يكفهم اليوم رأيتهم يحرثون بالليل — ما هى حياتهم بالنسبة لحياتنا — تلك الحياة التى تبدو لهم عدما ؟

ما أعماهم — انهم يضيعونها هباء — ولكننا نعيش فى حاضرنا » * .

ان الشغف الشديد الذى تصطنعه الحياة اذا ما هبطت الى المستوى اللاتفكيرى — مستوى الادراك الحسى المجرد — هذا الشغف الجياش قد وصفه رجل يستطيع أن يكتب — وهو و . هـ . هدسن W.H. Hudson

* Quoted ly Lotze, Microcosms English Translation Vol. ii. p. 240:

فى كتابه « أيام الكسل فى باتاجونيا » Idle Days in Patagonia حيث يقول ذلك المؤلف الرائع البارع :

« أمضيت الشطر الأكبر من فصل الشتاء على بقعة فوق الريو نجرو Rio Negro التى تبعد عن البحر بحوالى سبعين أو ثمانين ميلا .

وكان من عادتى أن أخرج كل صباح ممتطيا حصانى متقلدا بندقيتى يتبعنى كلبى — ثم أبتعد عن الوادى وبمجرد أن أصعد فى السفح وأخوض فى الدغل أجد نفسى وحيدا كما لو كانت المسافة التى تفصل بينى وبين الوادى والبحر خمسمائة ميل ، بدلا من خمسة أميال .

لقد كان هذا القفر يبدو موحشا ومنعزلا وبعيدا وممتدا الى اللانهاية ، قفرا لم تطأه قدم الانسان ، قفرا يندر فيه وجود الحيوانات المتوحشة ، ولذلك لم تمهد لها طريقا خلال الحسك ، ولقد عدت الى هذا القفر والعزلة مرة ، ومرة ، ومرة ، وكنت أذهب اليه فى الصباح كما لو كنت ذاهبا لحضور حفل ولم أكن أغادره الا عندما يقرصنى الجوع أو العطش أو تميل الشمس الى مغربها فتضطرنى الى العودة — ومع ذلك فلم يكن لى هدف أو غرض أتبعه من الذهاب — لم يكن عندى دافع أستطيع أن أصوغه فى كلام ، فعلى الرغم من أننى كنت أحمل بندقية فانه لم يكن هناك شىء أصطاده . فالصيد كله كان فى جوف الوادى .

وأحيانا كنت أمضى يوما كاملا دون أن تقع عينى على أى حيوان من الحيوانات الثديية — وربما لا أكثر من نصف «دستة» من الطيور — وكان الجو عندئذ معتما ، والسحب الداكنة تغطى السماء والريح باردة لدرجة أن البرودة كانت تخدر يدى القابضة على اللجام .

ولم أكن أطلق لجوادى العنان ، وانما أمضى على مهل بخطوة وئيدة لم يكن فى مقدورى احتمالها فى ظروف أخرى — وكنت أظل راكبا على هذا النحو لمدة ساعات طويلة بلا توقف .

وعندما كنت أصل الى سفح تل فكنت أظل راكبا على الجواد وأصعده على مهل وببطء حتى أصل الى قمته ، ثم أقف هنالك لأملأ عينى من هذا المشهد الرائع من فوق القمة .

وكان المنظر يمتد على كلا الجانبين فى تعرجات ومنحنيات كبيرة — متوحشة غير منتظمة — ما أروع لونها الأشهب — ولم تكن تبدو لى أكثر قربا من الأفق البعيد المغلف بالضباب والاغبرار حيث تبدو التلول معتمة وخط سلسلة الجبال لا يكاد يرى بسبب بعد المسافة .

فاذا ما نزلت من علياء القمة وهبطت الى السفح استأنفت تجوالى ثانية بلا هدف ، ثم أعتلى مرتفعات أخرى لأحملق فى نفس المنظر من نقطة أخرى ، وهكذا لساعات طويلة .

وعند الظهر أترجل عن جوادى ثم أجلس أو أستلقى لمدة ساعة أو أكثر متوسدا معطفى .

وذات يوم وأنا أتجول استكشفت حرجة (غابة صغيرة) تتكون من عشرين أو ثلاثين شجرة تنمو على أبعاد متناسبة فيما بينها ، ويظهر أنها كانت مأوى لقطيع من الغزلان أو الحيوانات المتوحشة ، وكانت هذه الحرجة قائمة فوق تل يختلف فى شكله عن بقية التلول الأخرى فى المنطقة المجاورة — وبعد فترة — قررت أن أستعملها كاستراحة كل يوم عند الظهر . ولم أسأل نفسى : لماذا اخترت هذه البقعة بالذات ؟ ولماذا كنت أتنكب طريقى أحيانا لأجلس هناك بدلا من أن أتفيأ ظلال شجرة من ملايين الشجرات أو الشجيرات الأخرى المبثوثة على أى تل آخر من التلول الأخرى ؟

لم أفكر فى ذلك أبدا ، وانما تصرفت لاشعوريا . ثم بدا لى فيما بعد — فقط — أننى بعد أن استرحت هناك مرة أننى كنت أرغب كل مرة فى أن أستريح هناك ثانيا ، فكانت الرغبة تأتينى مرتبطة بصورة هذا الدغل المعين من الأشجار بالذات بسيقانه اللامعة وبمرقده النظيف من الرمل تحت الأشجار ، وبعد مدة قصيرة كونت عادة العودة اليه — كما لو كنت حيوانا — لكى أستريح فى نفس البقعة ، فما أحلى الرجوع اليه !

« وربما كان خطأ منى أن أقول اننى أجلس هناك وأستريح ، فلم أكن متعبا أبدا ، ومع ذلك فبدون أن أكون متعبا — كانت تلك الفترة — تلك الوقفة اليومية ظهر كل يوم — التى كنت أجلس خلالها لمدة ساعة دون حركة — طيبت خاطرى وأرضتنى بشكل غريب .

« فطوال اليوم كنت أتمتع بهذا الهدوء ، بلا أى صوت يزعجنى حتى حفيف الشجر لم أكن أسمعه .

وذات يوم — بينما كنت أنصت للهدوء — بدا لى أن أتساءل عن نتيجة أو أثر ما يمكن أن يحدث اذا رفعت عقيرتى وصرخت بأعلى صوتى .

وقد بدا هذا الاقتراح حينئذ فظيعا جعلنى أرتجف من الخوف .

ولكن أثناء هذه الأيام من العزلة والانفراد كان من النادر جدا أن تدور بخلدى فكرة ، ففى الحالة العقلية التى كنت فيها أصبح التفكير مستحيلا ، ذلك أن حالتى كانت حالة توقف وترقب ، ومع ذلك فلم أكن أتوقع حدوث أية مفاجأة أو ملاقاة أية مغامرة وشعرت بخلوى من أى توجس أو خوف ، كما أشعر الآن تماما وأنا جالس فى غرفتى فى لندن .

فالحالة كانت تبدو لى مألوفة أكثر مما كانت غريبة ومصحوبة بشعور قوى من الابتهاج والتشامخ . ولم أعرف أن شيئا وقف بينى وبين عقلى

حتى عدت الى سابق نفسى — الى التفكير — والى وجودى التـافه الجامد القديم (ثانية) . ولقد عدت ثانية بلا شك — وهذه الحالة من الترقب الشديد ، أو على الأصح الخفة واليقظة والنشاط بما يصاحبها من توقف القوى الفكرية العليا تمثل الحالة العقلية للمتوحش الهمجى القح ، فهو قليلا ما يفكر ، وقليلا ما يتعقل ، وله من ادراكه الحسى المجرد خير دليل وموجه .

انه فى حالة انسجام تام وتناغم وتوافق مع الطبيعة ، ويكاد يكون على المسـوب العقلى للحيوانات المتوحشة التى يفترسها والتى هى بدورها تفترسه أحيانا » * .

للمشاهد الخارجى تشكل مثل تلك الساعات التى كتب عنها هدسون مجرد قصة خـواء وفراغ لا يحدث فيه شىء ، ولا يستفاد منه شىء ، ولا يوجد فيه شىء يوصف . انها مجرد مد زمنى كله خواء ولا معنى له .

أما ذلك الذى يشعر بسرها الدفين الباطنى فانها تحمل له أهمية ومعانى تشهد على نفسها بنفسها دون أن تنبس بحرف .

اننى أتحسر على الولد أو البنت أو الرجل أو المرأة الذى لم ينفعل أبدا بسحر هذه الحياة الحسية السرية الغريبة بما فيها من انعدام المعقولية اذا أحببت أن تسميها كذلك . ولكن بما فيها من يقظة وخفة ، وسعادة وغبطة وهناءة عليا مطلقة .

ان أيام البطالة فى الحياة — أو « إجازات » الحياة — هى أعظم أجزاء الحياة حيوية وأهمية ، لأنها — أو على الأقل لأنها ينبغى أن تكون — زاخرة بهذا النوع بالذات من اللامبالاة الساحرة التى تأخـذ بمجامع القلوب .

---

* Op. cit.; pp. 210-222: (Abridged):

والآن ما نتيجة وحصيلة كل هذه الاعتبارات والاقتباسات ؟

انها سلبية فى معنى ولكنها ايجابية فى معنى آخر .

انها تنهانا عن المضى فى القاء التهم جزافا ضد كل أشكال الوجود التى تختلف عن أشكالنا ووصفها بأنها عديمة المعنى .

وهى فى الوقت نفسها تأمرنا بأن نتحمل ونتسامح مع ونحترم ونتعمق أولئك الذين نراهم سعداء ومشغوفين فى حياتهم على طريقتهم الخاصة دون أن يؤذوا أحدا ، أيا كانت مصادر سعادتهم وشغفهم ، ومهما تكن غير مفهومة لنا .

كفوا وارفعوا أيديكم . فلا الحقيقة برمتها ، ولا الخير كله ، ينكشفان لأى ملاحظ بمفرده على الرغم من أن كل ملاحظ تكون عنده بصيرة جزئية تفوق غيره بسبب الموقف الخاص ، أو بفضل الوضع الفريد الفذ الذى يكون فيه .

حتى السجون وغرف المرضى لها ألوان « كشفها » المعينة . انها كثيرا ما ترفع الغشاوة عن أعين أصحابها .

انه يكفى أن نطلب من كل منا أن يخلص للفرص التى تواتيه ، وأن يفيد الى أقصى حد من النعم التى تسبغ عليه دون أن يفترض فى نفسه القدرة على تنظيم بقية الكون الشاسع .

الفصل الثالث

ما الذى يجعل لحياة ما ... معنى ؟

فى حديثى السابق « عن ظاهرة عمى معين » حاولت أن أجعلكم تشعرون الى أى حد تختنق الحياة وتخترم بالقيم وبالمعانى التى نخفق فى إدراكها بسبب وجهة نظرنا الخارجية والعديمة الحس .

ان المعانى موجودة هناك للغير ...

ولكنها ليست موجودة هناك لنا .

بيد أن فهم هذه الحقيقة يقتضى أكثر من مجرد اهتمام أو تأمل مبعثه حب الاستطلاع .

ذلك لأن قيمتها وأهميتها العملية فى منتهى الخطورة . ليتنى أستطيع أن أقنعكم بها مثلما أشعر بها نفسى .

انها ركيزة كل ما فينا من تسامح .. اجتماعى ، ودينى ، وسياسى .

ونسيانها أو إغفالها يكمن وراء كل خطأ سفيه ، ويرتكز عليه كل سفك للدماء يقترفه الحكام فى حق الشعوب الخاضعة لحكمهم .

إن أول شىء تتعلمه فى محادثة النـاس هو عدم التدخل فى طرقهم الخاصة المعينة التى ينشدون بها السعادة ، بشرط ألا تتدخل هذه الطرق بالقوة فى طرقنا نحن الخاصة بنا .

لا يوجد انسان عنده بصيرة بكل المثل العليا ، ولا ينبغى لأى انسان أن يجعل من نفسه حكما عليها لأول وهلة .

ان اصطناع الوثوقية والعقيدية واليقينية فى أمرها وافتراض الحتمية المجمدة فى اعتبار كل فريق حيال الفريق الآخر ، هى مصدر معظم البلاء الانسانى وأساس كل المظالم وصنوف القسوة والعذاب التى تقاسيها الانسانية . وهذه الصفة أو الخاصية فى الخلق الانسانى هى الخاصية التى تسيل دموع الملائكة .

ان كل محب . Jack (چاك) يرى فى محبوبته Jill (چل) مفاتن وألوانا من الكمال — لا نشعر بسحرها نحن الذين ننظر اليها من الخارج نظرة تبلد لا تحرك فينا ساكنا ، وانما تقابلها ببرود وجمود كجمود الصخر .

ومن ذا الذى يملك زمام رؤية الحقيقة المطلقة هو أم نحن ؟

من عنده بصيرة حيوية أكثر بطبيعة وجود المحبوبة كحقيقة ؟

هل فاض به الوجد باعتباره فى هذه المسألة فى حالة هيام وهوس ، واذن فهو مبالغ ؟

أم أن العيب فينا والقصور فينا باعتبارنا ضحايا تخدير معتل بالقياس الى أهمية المحبوبة (چل) الساحرة وفتنتها الآسرة ؟

بالتأكيد العيب فينا نحن — بالتأكيد تنكشف الحقائق الأكثر عمقا للمحب لچاك — بالتأكيد أن نبضات قلب المحبوبة (چل) وخفقانه من بين أروع عجائب الخلق وتستحق هذا الاهتمام الحنون — وانه لعار علينا أننا لا نستطيع أن نحس باحساس المحب چاك .

ذلك أن المحب (چاك) يدرك المحبوبة (چل) ادراكا ملموسا محسوسا ونحن لا نفعل ذلك .

وهو ينافح ويكافح فى اتجاه اتحاد بحياتها الباطنية مقدسا مشاعرها ، مدركا لرغباتها ، ومتوقعا لها بحساسية فائقة ، فاهما لحدودها بأقصى

ما فيه من رجولة . ومع ذلك فبطريقة غير كافية ولا وافية أيضا ، لأنه أيضا مصاب ببعض العمى ، حتى هنا ! فبينا نحن كالكتل الجامدة الميتة ، لا نحاول ولا نبحث فى هذه الأمور وتقصيها ، وانما نقتنع بأن ذلك الجزء من الحقيقة الخالدة المسماة (چل) ينبغى أن يكون بالنسبة الينا كأنه غير موجود . وچل — التى تعرف حياتها الباطنية — تعرف أن طريقة چاك فى الاهتمام بها الى هذا الحد هى الطريقة الصحيحة ، والطريقة الجدية ، وهى تستجيب للحقيقة فيه بأن تهتم به حقا وجديا أيضا .

حبذا لو لم يلفهما العمى القديم بسحبه بعد ذلك ثانيا . أين يكون كل واحد منا الآن ، اذا لم يكن هنـاك شخص راغب فى معرفتنا على حقيقتنا ومستعد لأن يوفى لنا الدين لقاء بصيرتنا بأن يعترف بنا كما اعترفنا به — واحدة بواحدة .. وفاء بوفاء .

ينبغى لنا جميعا أن يدرك بعضنا بعضا على هذا النحو الواسع الهام المؤثر فى العواطف .

فاذا قلت ان هذا سخيف ، وانه يستحيل علينا أن نحب كل واحـد دفعة واحدة ، فسأكتفى بأن أشير اليكم بأنه فى حقيقة الأمر يوجد أشخاص معينون مزودون بقدرة هائلة على الصداقة وعلى الابتهاج بحياة الآخرين ، وان مثل هؤلاء الأشخاص يعرفون من الحقيقة أكثر مما لو لم تكن قلوبهم كبيرة واسعة .

ان اثم حب چاك وچل وأمثالهما ليس فى شدته ، ولكن فيما فيه من ألوان المنع والنفى والكف والغيرة والحقد .

دع تلك الصفات جانبا واطّرحها وراءك ظهريا وسترى أن المثل الأعلى الذى أعرضه أمامكم الآن — مهما كان غير عملى اليوم — لا يحوى فى طياته أى سخافة ذاتية أصيلة .

إننا بلا جدال نرزح تحت أعباء غشاوة من العمى السلفى — ترفع عن أعيننا — هنا أو هناك فى نوبات متقطعة تتكشف لنا فيها الحقيقة .

ولا جدوى من أن نأمل فى أن تتغير هذه الحالة تغيرا كبيرا .

فأسرارنا الباطنية الدفينة ستظل فى معظم أجزائها مغلقة دون الآخرين ؛ لأن الكائنات التى يتعين عليها أن تكون عملية بالضرورة لابد وأن تكون بالضرورة قصيرة النظر !

ولكن اذا لم نستطع أن نكتسب بصيرة ايجابية فيما بيننا أفلا نستطيع على الأقل أن نفيد من حاسة العمى المتوافرة لدينا لنكون أكثر حذرا فى ارتياد الأماكن المظلمة ؟ أفلا نستطيع أن نتلافى بعض تلك الألوان السلفية من التعصب والقسوة والتناقض الايجابى مع الحقيقة ؟

فى الجزء الباقى من هذه المحاضرات أدعوكم وأناشدكم أن تبحثوا معى عن مبدأ يجعل تسامحنا وتقبلنا للآخرين أقل فوضى وتشويشا ، وكما بدأت محاضراتى الماضية بذكرى شخصية فأستمحيكم العذر فى أن أخوض بكم فى حديث صغير عن نفسى .

فى أحد فصول الصيف منذ بضع سنوات قضيت أسبوعا سعيدا فى أراضى « المجمع » الشهيرة على شواطىء بحيرة شوتاكوا Chautauqua ، وفى اللحظة التى يطأ فيها المرء هذا الفضاء المقدس يشعر المرء بنفسه فى جو من « النجاح » .

فالتعفف والرزانة والمثابرة والجد والذكاء والتقوى والنظام والمثالية والازدهار والمرح تسود الجو وتشيع فيه . انها رحلة جدية تتطلب جهدا ومثابرة وجدا على نطاق هائل .

هنا تجد مدينة من آلاف عديدة من السكان ذات موقع جميل فى الغابة جففت وزودت بكل الوسائل المشبعة لحاجات الانسان الدنيا ، ومعظم حاجاته العليا . هنا تجد كلية من الطراز الأول فى أوج فتوتها .

وتجد موسيقى رائعة ، وزمرة من المرنمين يبلغ عددها سبعمائة صوت فى أعظم مسرح فى العالم بنى فى الهواء الطلق . هنا تجد كل أنواع الألعاب والتمرينات الرياضية من التجديف الى السباحة ، الى ركوب الدراجات ، الى كرة القدم وكرة السلة ، الى سائر الألعاب الأخرى الصناعية داخل « الجيمنيزيم » . هنا مدارس رياض أطفال ، ومدارس ثانوية نموذجية . هنا تقام صلوات عامة ومواعظ دينية ومنتديات خاصة للمذاهب الدينية المختلفة .

هنا تجد نافورات للمياه الغازية (والآيس كريم) تتدفق باستمرار ومحاضرات شعبية يومية يلقيها مشاهير المحاضرين .

هنا تجد أفضل الصحبة وبلا مجهود .

هنا لا توجد أوبئة ، ولا فقر ، ولا مدمنو خمر ، ولا جريمة ، ولا شرطة. هنا تجد الثقافة والصقل ، والظرف واللطف والمعروف ، ورخص الأسعار والمساواة . هنا تجد أطيب ثمرات ما كافح الانسان من أجله بالعرق والدم تحت اسم المدنية لقرون عديدة . هنا بالاختصار تجد مقدمة أو إرهاصة لما ينبغى أن يكون عليه المجتمع الانسانى اذا قدر له أن يعيش فى الضوء بلا آلام ، ولا عذاب ، ولا أركان مظلمة .

لقد دفعنى حب الاستطلاع لأن أذهب لأمضى هناك يوما فلبثت هناك أسبوعا كاملا مأخوذا ومسحورا بجلال ويسر كل شىء — هنا جنة الطبقة المتوسطة دون أن تقترف أى اثم أو تقدم قربانا من ضحية — أو تلطخها بوصمة تسكب من أجلها دمعة .

ولكن العجب الذى يستنفد كل عجب أننى بمجرد أن خرجت من هذه الجنة الوارفة الظلال الى عالم الظلمة والشرود ثانية ، ألفيت نفسى أقول على غير توقع ، وعلى الرغم منى :

« أف ... لقد تنفست الصعداء . اننى أشعر بالارتياح أن أغادر تلك الجنة . ما أشد لهفتى على الخروج الى عالم طبيعى أصيل ، حتى لو كان قد بلغ من السوء ما بلغته المذبحة الأمريكية لكى أستعيد توازنى مرة ثانية !

هذا النظام داخل « المجمع » — نظام ذلول أكثر مما يجب وثقافته من الدرجة الثانية . وهذا الصلاح والتقوى والخير — التى تشيع فى أرجائه لا تشحذ همة ولا توحى بذكاء .

هذه المسرحية الانسانية — بدون شرير أو مخاض أو ألم — هـذا المجتمع الذى بلغ من رقيه ورقته أن أصبحت الآيس كريم بالمياه الغازية هى أقصى منحة يقدمها للحيوان المتوحش الرابض فى اهاب الانسان .

هذه المدنية التى علت وخفت فى شمس البحيرة الفاترة ، هذه السلامة الفظيعة فى كل الأشياء .. لم أستطع أن أقيم معها باستمرار ، ولم أطق الوجود الى جوارها الى الأبد .

دعونى أغامر .. أكافح وأنافح وأسعى وأنطلق ثانية فى أرجاء العالم الفسيحة بكل ما فيه من آثام وآلام .

هنالك تجد الآفاق والأعماق والوهاد والمثل التى تهبط بالانسان الى أسفل سافلين — هنالك تبرق ومضات الهول والسرمدية ، بيد أنها أكثر رجاء وعونا آلاف المرات من ذلك المستوى الهامد الميت الذى جمع خلاصة كل اعتدال ووسط » .

ذلك كان ما واجهتنى به نفسى عندما جمح بى خيالى العاصى بمجرد أن خرجت من تلك الجنة .

لقد وجدت هناك ماثلا أمامى — تحقيقا — على نطاق صغير ضيق طبعا — لكل المثل العليا التى تحاول حضارتنا احرازها — الطمأنينة — الأمن — الدعة — الذكاء — الانسانية — النظام — ولكن ماذا كان رد الفعل حيالها ؟ — كان رد الفعل الغريزى حيالها رد فعل مضاد ومعاد — ولم يكن صادرا عن رجل الطبيعة البدائى وانما كان رد فعل صادر عن رجل مثقف حيال هذه اليوتوپيا Utopia (العالم المثالى) .

وهكذا يبدو أنه يوجد نوع من التناقض الذاتى على نحو ما — الذى كان يتعين على — أنا الأستاذ الذى يقبض مرتبه كاملا — أن أميط عنه اللثام وأشرحه اذا استطعت الى ذلك سبيلا ، لذلك تأملت وفكرت بامعان .

وأولا وقبل كل شىء سألت نفسى عن ذلك الشىء بالذات الذى تفتقر اليه تلك المدينة الغارقة فى النعيم افتقارا شديدا ، ذلك الافتقار أو النقصان الذى يجعل المرء باستمرار فى حالة من عدم الرضا والقناعة التى تصبو اليها نفسه .

وسرعان ما أدركت أنه العنصر الذى يخلع على العالم الخارجى الطالح الأثيم — سبيله وأسلوبه الخلقى ويغذيه بالتعبير والجمال — ذلك العنصر الشامخ العجول الذى يملؤه بالقوة والعزم والشدة والخطر .

ان ما يثير الناظر الى الحياة ويبعث فيه الشغف والاهتمام .. ان ما تمجده القصص وما ترمز اليه التماثيل وما تذكرنا به النصب التذكارية هو الحرب الخالدة المستعرة الأوار بين قوى النور وقوى الظلام .

حقيقة أن البطولة تتقلص الى فرصتها العارية ولكنها دائما وعن قرب تخطف النصر من بين مخالب الموت .

ولكن الصورة فى أراضى « المجمع » الشهيرة على شواطىء بحيرة شوتاكوا — حيث يسود الهدوء والصمت والنظام — صورة مختلفة عن صورة الحياة الواقعية ؛ فالموت لا يلوح فى أى مكان ليهدد أى انسان. ولا توجد نقطة فى ذلك الحرم الآمن يحتمل أن يبرز منها خطر داهم .

ان المثل قد انتصر انتصارا كاملا لدرجة أنه لا يوجد أثر باق دال على معركة سابقة وقد ارتكن المكان على مجاديفه !

بيد أن ما تحتاج اليه انفعالاتنا الانسانية هو منظر المعركة والكفاح مستمرا موصولا .

وفى اللحظة التى نقتصر فيها على مجرد جنى الثمر وأكله ، فان الأمور تصبح خسيسة دنيئة لا تليق بانسانية الانسان .

ان العرق والكفاح والطبيعة الانسانية فى أقصى طاقات جهدها واحتمالها —مصهورة على السفود— ماضية على جسر من التعب والعذاب ، ولكنها مع ذلك شامخة نابضة حية تسير الى غايتها . وكلما أحرزت نجاحا أولته ظهرها لكى تحرز نجاحا آخر يتطلب جهدا آخر وعرقا أغزر وكفاحا أشد ارهاقا وعنتا ، هذا هو بالذات الذى يبعث وجوده فينا روحا وثابة ويوحى الينا بجلائل الأعمال .

هذه هى الحقيقة التى يبدو أن وظيفة الآداب الرفيعة والفنون الجميلة ، هى أن تغرسها فى نفوسنا وتقربها منا وتوحى الينا بها .

أما فى شوتاكوا فلم يكن هناك جسر من التعب أو العنت ، ولا أدوات تعذيب حتى فى المتحف التاريخى للمجمع الشهير — ولم يكن هناك عرق الا تلك القطرات التى تتفصد على جباه المحاضرين على الجمهور أو على جسوم اللاعبين فى ساحة كرة القدم .

مثل هـذا الافتقار الى الطبيعة الانسانية فى غلوها فى أى مكان ،

بدا لى — عندئذ — تفسيرا كافيا لسطحية الحياة فى شوتاكوا وخمودها وجمودها .

ولكن : ألم يكن ذلك تناقضا أتقن حسابه ليملأ المرء بالغم والروع ؟

لقد قدرت أن الأمر يبدو كما لو أن المثاليين الرومانتيكيين بتشاؤمهم حيال حضارتنا كانوا محقين آخر الأمر .

ان هناك سطحية لا برء منها تجتاح العالم . ان البورجوازية والاعتدالية الوسطية وجماعات الكنائس ومؤتمرات المعلمين حلت محل الأعماق "آفاق العليا القديمة والتنوع الرومانتيكى .

ولكى نستعيد للحياة الانسانية طابع الغلو والقوة والبدائية فعلينا فى المستقبل — أن نبتعد أكثر وأكثر من الواقع وننساه اذا استطعنا ونولّى وجوهنا شطر المحلق فى الخيال أو شطر صفحات الشاعر .

ان العالم كله — كما يبدو مبهجا وآثما — لفترة — لشخص قد هرب لتوه من سياج الشوتوكوا يمضى — مع ذلك — قدما فى نطاق تلك المثل بالذات ويطيعها — بيد أن تلك المثل ستجعل منه آخر الأمر حتما مجرد مجمع شاتوكوانى على نطاق واسع .

Was in Gesang soll leben muss in Leben untergehn

حتى فى وقتنا الحاضر فى بلادنا — فان صفات الدقة والاستقامة والقدرة على الاتفاق بحل وسط — للحصول على أية ميزة مهما صغرت — قد بخست قدر كل الصفات الأخرى وتكاثرت عليها فأصبحت أغلبية ضد أقلية .

ان البطولات العليا وألوان النخوة والمروءة والشهامة وصنوف المذاق النادر فى الحياة ، قد انقرضت وانتهى أمرها وفقدت حقها فى الوجود * .

* هذا الحديث ألف قبل حربى كوبا والفيلبين ، مثل هذه الانفجارات لانفعال السيادة ليست سوى أحداث استطرداية فى عملية اجتماعية موصولة يبدو انها تجنح فى المدى الطويل الى الانصباب فى القوالب والمثل الشاتو كوانية

بهذه الأفكار فى عقلى كان القطار ينهب بى الأرض نحو مدينة بفالو Buffalo — عندما باغتنى بالقرب منها — منظر عامل يؤدى عملا فوق حافة بناء حديدى يكاد يرتفع الى عنان السماء — هذا المنظر ردنى إلى عالم الواقع وأعاد الى حواسى .

وعندئذ أدركت بوميض من البصيرة أننى كنت مغرقا فى عمى سلفى بحت،وأننى كنت أنظر الى الحياة بعيون مشاهد يراها من بعيد .

إن رغبتى فى البطولة ومشهد الطبيعة الانسانية على جسر العذاب — أعمتنى عن رؤية الميادين العظيمة للبطولة القائمة من حولى والتى فشلت فى رؤيتها حية نابضة ماثلة للعيان .

لم أستطع أن أفكر فيها الا كأشياء ميتة تستحق التقريع والازدراء كما صورتها وأسمتها ولوتها وكستها صفحات القصص الروماتيكية .

ومع ذلك فقد كانت قائمة أمامى تنطق بها الحياة اليومية للطبقات الكادحة .

إن البطولة لا تلتمس فى قعقعة المعارك والحروب وأعمال الفدائية فحسب ولكنها موجودة وقائمة وماثلة أمام أعيننا فوق كل جسر من جسور السكك الحديدية وفى كل مبنى من المبانى المزودة بأجهزة اطفاء الحريق ، التى تقام اليوم وتنشأ فى كل مكان .

ان الحاجة الى الشجاعة والبطولة لا تنتهى . اننا نحتاج اليها فى قطارات البضاعة وفوق السفن والمواخر وفى حظائر الماشية والمناجم وفوق أرماث الأخشاب . اننا نحتاج اليها ونتلمسها فى رجال المطافىء وفى حراس الأمن من رجال الشرطة ، نحتاج اليها دائما ونجدها دائما ، فالمدد زاخر وموصول .

هنالك — على مدار العام ، وفى مكان ما — تجد الطبيعة الانسانية فى علوها وقوتها .

وكلما حصد منجل ، أو أهوت فأس ، أو هدم معول ، أو جرفت مجرفة ، وجدت البطولة بكل ما يصاحبها من عرق وألم وتضحية وهى تكافح بكل قواها الصابرة من الاحتمال فى أقصى درجاته طوال ساعات وساعات من الجهد والمثابرة والكفاح — ساعات تطول وتطول .

وعندما تنبهت — كمن يستيقظ من سبات عميق — لتلك الحياة البطولية التى لا تلقى منا تمجيدا ولا تخليدا سقطت كفتا الميزان من عينى واجتاحتنى موجة من التعاطف والتقدير — أعظم من أى شعور أحسست به فى حياتى من قبل — لتلك الحياة العادية للرجل العادى . لقد امتلأت روحى بهذا الشعور ، لقد انقشعت الغشاوة التى خيمت على بصرى،وبدأت أرى الفضيلة بالأيدى المرقة الخشنة والجلد القذر هى الفضيلة الوحيدة الأصيلة التى لها من الحيوية الكافية ما يستحق التقدير والاعتبار .

فلتضع كل فضيلة أخرى حملها — فلا توجد فضيلة بسيطة ولا شعورية على الاطلاق لا تتوقع جزاء ولا شكورا ولا تلقى تكريما ولا اعترافا مثل هذه الفضيلة بالذات .

هؤلاء هم جنودنا ، هؤلاء هم ركائزنا ودعائمنا ، هؤلاء هم أصلاب حياتنا .

منذ سنوات عدة إبان زيارتى لڤينا انتابنى شعور مماثل بالروعة والتبجيل وأنا أنظر الى الفلاحات وقد وردن من الريف الى المدينة يوم السوق ليبعن ويشترين ، وكانت الكثيرات منهن عجائز قد تيبست وجوههن ولفحتها السنون فامتلأت بالتجاعيد ، وكن يغطين رءوسهن بالمناديل ويلبسن

« فساتين » تحتية قصيرة ويرتدين جوارب طويلة صوفية ثقيلة فوق سيقانهن النحيلة مخترقات الشوارع المتلألئة بالأضواء فى جـد وجهامة لا يلتفتن يمينا ولا يسارا ، لا يشغلهن شيء الا أداء واجبهن ولا يشعرن بحسد حيال أى شيء وانما تنطوى قلوبهن على التواضع ، بعيدات عن أوضار الحياة . ولكن المرء عندما يفكر فى الأمر مليا يجد أنهن فى قرارهن كن يحملن النسيج الكلى لمفاسد وبهاء تلك المدينة فوق ظهورهن المكدودة .

والا فأين يتسنى كل ذلك دون كدهن وعملهن فى الحقول ؛ ذلك العمل الذى لا يلقى جزاء ولا شكورا ؟

وهكذا الحال عندنا ، ينبغى أن تقيم مدينة مثل بوسطن نصب الاعتراف بالجميل والتبجيل ليس للشعراء والقواد الحربيين ولكن للعمال الكادحين فى قطارات تحت الأرض من الطليان والمجريين .

ان الذى قرأ تولستوى Tolstoi — منكم يلاحظ أننى مررت بنفس عرق الشعور الذى مر به بكراهيته الشديدة ومقته لكل ما يعتبره العرف الدارج ممتازا أو شهيرا وتأليهه فقط لصفات الشجاعة والنخوة والصبر والمعروف وبكم الرجل الطبيعى اللاواعى .

قلت لنفسى : أين هو الآن تولستوينا ليجلو لنا حقيقة ذلك كله فتنفذ الى قلوبنا نحن معشر الأمريكيين وتملؤنا ببصيرة أقوم سبيلا وتفطمنا من تلك الرومانتيكية الأدبية المنحوسة التى تتغذى ثقافتنا (كما تسمى نفسها) من لبانها الكاذب المزور ؟

ان القداسة تحيط بنا من كل جانب وتغمر كل شيء حولنا ولكن الثقافة تحجب نفسها بأستار صفيقة لدرجة أنها لا تحس بهذه الحقيقة .

هل لهذه الرسالة من مبشر يهدى اليها من طراز هولز Howells أو كيبلنج Kipling ؟

أم أنهما ما زالا غارقين الى قمة رأسيهما فى العمى السلفى ولم يبلغا درجة كافية من الانسانية ليحسا بالبهجة الباطنية والمعنى العميق لوجود العامل الكادح بحيث يستحقان الكشف عنهما ؟

هل لزام علينا أن ننتظر حتى يولد شخص ثم ينشأ ويعيش كعامل ثم يهبط عليه وحى السماء ليصبح أديبا ينطق بهذه الرسالة ؟

وهناك أخلدت فى ذلك اليوم الى نفسى وغمرتنى سكينة واحساس باتساع مجال رؤيتى وأفقى وشعرت بشعور أرى من الانصاف لنفسى أن أسميه بصيرة دينية فى الكون .

ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم ، والفروق الاجتماعية بين الناس والفروق الفكرية وفروق الثقافة والنظافة والملبس وكل ما يصطنعه الناس لأنفسهم من مزايا أو يخلعونه على أنفسهم من متاع الغرور ويتشبثون به فى صلف وخيلاء — كل هذه الفروق تصغر فى عين الله لدرجة أنها تتلاشى .

« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » ، ولا ينبغى أن يمكث سوى حقيقة وجودنا — شرايين وأوعية للحياة لا يحصيها عد — كل منا له مشكلاته الخاصة ، ولكن علينا جميعا أن نتكاتف لحلها بالافادة بكل ما فينا من شجاعة وصلاحية وخير ، أيا كانت وأنى كانت .

ان ممارسة الشجاعة والصبر والمعروف ينبغى أن تشكل الجزء الأكبر من الأمر كله ، أما فروق المكانة بين الناس وأوضاعهم المختلفة فليست سوى حالة أو طريقة لتنويع الشكل الظاهرى والسطح المظهرى الذى تستقر تحته تلك الفضائل وتفرز آثارها .

على هذا المنسوب تجد أعمق الحياة الانسانية فى كل مكان أبدية سرمدية خالدة .

واذا كانت هناك صفات أو خصائص انسانية نخص بها بعض الأفراد دون غيرهم فلابد أنها خصائص تنتمى الى الشكل الظاهـرى والسطح المظهرى — انها مجرد عرض أو زينة أو نافلة .

وهكذا — تسوى حياة الناس ويتم تسطيحها علوا وانخفاضا — علوا فى معانيهم الباطنية المشتركة ، وانخفاضا فى مظاهرهم الخـارجية وما يصطنعونه من أمجاد .

بيد أنه ينبغى لنا أن نعترف دائما أن هذه البصيرة الهادفة للتسوية والتسطيح تجنح الى أن يعاودها الابهام والالتباس ، ويرتد العمى السلفى ويغلفها ثانية بحيث ان الأمر ينتهى بنا ثانيا الى أن نظن أن خلق الحيـاة ليس له من غرض سوى اصطناع مواقف تستحق الذكر والشهرة واحراز مميزات اصطلح الناس على تمجيدها وحيازة أفضال تستوجب الثنـاء وتستحق الثواب .

ثم ينبثق بعد ذلك مسو جديد فى شكل نبى دينى عليه أن يقـوم بالتسطيح فيرفع الغشاوة عن أعيننا ويبدد العمى عن بصائرنا — ذلك كان شأن بوذا والمسيح والقديس فرانسيس وروسو وتولستوي ، ولكن شيئا فشيئا ، وقليلا قليلا ، ورويدا رويدا ، يزداد رصيد الانسانية من الكسب الراسخ . فالعالم بالفعل يزداد انسانية،ودين الديموقراطية يتسع وينتشر ليصبح عقيدة راسخة شاملة .

ذلك — كما قلت — أصبح ، لفترة ما ، عقيدتى ، وأشاع فى نفسى شعورا غامرا بالرضا .

ولقد عرضت لكم القضية فى شكل تذكار شخصى لكى آخذ بيدكم اليها أخذا مباشرا وكاملا ، وبذلك أوفر الوقت .

ولكنى سأناقش بقية القضية معكم الآن بطريقة غير شخصية وأكثر موضوعية .

ان فلسفة تولستوى التسطيحية المسوية بدأت قبل أن تنتابه أزمة الالتياث (الملانخوليا) بوقت طويل ؛ تلك الملانخوليا التى سجلها فى تلك الوثيقة الرائعة المسماة « اعترافى » .. التى مهدت الطريق لمؤلفاته الدينية الأخـرى .

وفى تحفته الفنية الخالدة : « الحرب والسلام » — التى تحتل أعظم مكانة فى القصص الانسانى — بلا منازع — أعطى تولستوى دور البطل الروحى لجنـدى صـغير بسـيط فقير يسمى كاراتائييف Karatieff . وهو رجل ذو مروءة ونخوة ومعونة للغير ، ويفيض مرحا واخلاصا وولاء لدرجة أنه على الرغم من جهله وقذارته فان رؤيته تفتح أبواب السماء التى كانت مغلقة — تفتحها لعقل الشخصية الرئيسية للكتاب .

ولقد قصد تولستوى بذلك أن يعيد القارىء الى حظيرة الله .

لقد أسر الفرنسيون كاراتائييف المسكين البائس ، وعندما نهكه التعب والعذاب والحمى وأصبح عاجزا عن الاستمرار فى المشى ، قتله الفرنسيون رميا بالرصاص كما قتلوا غيره من الأسرى ابان التقهقر الشهير من موسكو ، ان آخر مشهد تراه لهذا الجندى هو وجهه الصغير الدقيق مستندا الى جوار شجرة بتولا قد كستها الثلوج ، منتظرا الموت فى بسالة وشجاعة دون شـكاية .

يقول تولستوى فى كتابه « اعترافاتى » : « كلما فحصت حياة هـذه الطبقات الكادحة وازددت لها فهما أصبحت أكثر اقتناعا بأنهم مؤمنون حقا ، وان ايمانهم وحده هو الذى يمنحهم الاحساس بالحيـاة والقدرة

عليها وامكان الوجود فيها . وعلى العكس منهم تماما أولئك الذين ينتمون الى طبقتنا الذين يحتجون على القدر ويغضبون من صرامته ! لقد أبطرتهم النعمة ... ان هؤلاء القوم الكادحين يتقبلون الأمراض والبلايا والنكبات دون ثورة أو معارضة ، وانما بنفوس راضية ، وثقة راسخة هادئة : انها قدر مقدور على الجميع لا سبيل الى تلافيه ولا بأس بتحمله .

وكلما عشنا بعقولنا وفكرنا قلّ فهمنا لمعنى الحياة ، ذلك أننا لا نرى فى الألم والموت الا مزاجا قاسيا من القدر . على حين أن هؤلاء القوم يعيشون ويقاسون ويقتربون من الموت ويواجهونه بهدوء ، بل غالبا ما يستقبلون الموت راضين هانئين بنفوس مطمئنة تحب لقاءه .

إن هناك حشودا هائلة منهم قد وصلوا الى قمة السعادة والهناءة والسكينة على الرغم من أنهم محرومون مما يبدو لنا أنه وحده الكفيل بالاسعاد فى الحياة .

ان أولئك الذين يفهمون معنى الحياة ويعرفون كيف يعيشون ويموتون على هذا النحو لا يعدون بالمئنى والثلاث والعشرات ولكن بالمئات والألوف والملايين .

إنهم يعملون فى هدوء ويتحملون أنواع الحرمان وصنوف العذاب وألوان الألم ويعيشون ويموتون ولكنهم طوال حياتهم يرون الخير دون أن يروا الباطل .

وجدت لزاما علىّ أن أحب هؤلاء الناس . وكلما تغلغلت فى حياتهم ازداد حبى اياهم ، وأصبحت أنا أيضا أكثر قدرة على الحياة .

ولقد حدث أن حياة مجتمعنا — حياة المتعلمين والأغنياء — لم تكن مقززة لى فحسب — ولكن الأكثر من ذلك أنها فقدت كل معنى وشبه

وشكل وصورة فى عينى . إن كل تصرفاتنا وأعمالنا وتدبيرنا وعلومنا وقوتنا بدأت تظهر لى فى ضوء جديد ومعان جديدة .

بدأت أفهم أن هذه الأشياء قد تكون وسائل لذيذة من وسائل قضاء الوقت ، ولكن لا يستطيع المرء أن يلمس فيها أى عمق ؛ فى حين بدت لى حياة القوم الكادحين — حياة الحشود الهائلة العدد من البشر الذين يسهمون فعلا وحقا فى الوجود — بدت لى فى ضوئها الصحيح .

لقد أدركت أن حياتهم هى الحياة الحقيقية ، وأن معنى الحياة الذى يضفيه عليها عيشهم الكادح هو الحق والحقيقة . ولقد آمنت بهذا الحق وتقبلت هذه الحقيقة * .

وبنفس الطريقة يهيب ستيفنسون Stevenson بمروءتنا وتقوانا حيال الفضيلة الأولية للجنس البشرى فيقول فى كتابه « عبر السهول » * :

« ما أغرب هذا الانسان وأعجب صفاته وخصائصه ! . يالله من مسكين بائس ، يطرح فى العذاب الهون لقاء عرض زائل تافه ، تحتوشه الوحشية ويهبط وينحط بوحشية ، قضى عليه أن يعيش على أشلاء حياة أخيه الانسان قضاء لا علاج ولا برء منه . من ذا الذى كان يلومه لو كان قد نفس مصيره وأنه مخلوق متوحش فحسب ؟ .. [ولكن] ليس المهم أين تنظر اليه ، ولا تحت أى مناخ نلاحظه ، ولا فى أى مرحلة من مراحل المجتمع نرصده ، ولا فى أى درك من الجهل نضعه ، ولا بأى أثقال من الأخلاق الخاطئة ينوء بها كاهله .

وسواء أكان يدب على الأرض
أم يركب متون السفن فى البحر

---

* My Confession, X. (Condensed).
* Across the Plains: "Pulvis et Umbra" (abridged).

فهو مخلوق تعود المصاعب ، وألف المشاق والمتع الشريرة .

وأكثر آماله بريقا كمنجة فى حانة ، وعاهر من بنات الهوى تبيع نفسها لتسرقه . وهو — بسبب كل ذلك ومن أجل كل ذلك — بسيط ساذج مرح عطوف كطفل ، يكدح باستمرار ويخوض البحر اللجى ليغرق من أجل الآخرين !!

فى أحياء المدن الفقيرة القذرة وهو يتحرك وسط الملايين الذين لا يأبهون به — ساعيا الى وظائفه الآلية بدون أى أمل فى أن يتغير حاله فى المستقبل ، وبدون أى شغف أو تمتع بالحاضر . ومع ذلك يتشبث بفضائله ويتعفف بما يليق بأنواره كانسان ويعطف على جيرانه ، راكضا وراء سراب ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ..

انه يلقى ازدراء العالم .. بخدمات يؤديها ، وغالبا ما يقف ثابتا على الصراط .. ففى كل مكان نجد فضيلة يعتز بها ويحرص عليها ؛ وفى كل مكان بعض اللياقة فى التفكير والشجاعة ؛ وفى كل مكان يرتفع علم لفضيلة الانسان العابثة آه .. ! ليتنى أستطيع أن أبين لك ذلك .

لو كان فى مقدورى أن أريكم هؤلاء الرجال والنساء فى مشارق الأرض ومغاربها فى كل مرحلة من مراحل التاريخ تحت كل ظروف سوء الاستعمال للخطأ ، وفى كل ظرف من ظروف الفشل — دون أمل — دون معونة — دون جزاء ولا شكور — ومع ذلك ما زالوا يحاربون معركة خاسرة للفضيلة متشبثين بخرقة رثة من الشرف — هى الجوهرة المسكينة لأرواحهم » .

كل ذلك صحيح مثلما هو رائع . وما أشد حاجتنا الى أمثال تولستوى وستيفنستون ليحتفظوا بشعورنا حيًّا حيالها . بيد أنكم تذكرون الرجل الايرلندى الذى عندما سئل : « أليس كل رجل خيرًا مثل الآخر ؟ » فأجاب : « نعم ، وخير منه أيضا » .

وبالطريقة نفسها — فيما يبدو لى — نجد أن تولستوى يبالغ فى تصحيح ميولنا المتحيرة ، وأهوائنا الاجتماعية ، عندما يقصر حبه على الفلاح الكادح ثم يغلق قلبه على الاطلاق فى وجه الرجل المتعلم .

فلنسلم بأنه كان فى شوتاكوا مجهود أخلاقى صغير وبعض العرق والمجهود العضلى ، ولكن فى أعماق وأغوار أرواح القوم هناك لابد وأنه كان يختفى فيها شىء من هذا النوع — نوع من القلق الباطنى — فضيلة حيوية لا تفتقد عند الحاجة .

وبعد ذلك كله فان السؤال يعود الينا ثانيا ويلح علينا :

هل بالتأكيد وعلى سبيل الجزم أن الظروف والأحوال المحيطة بالفضيلة تحدث هذا الفرق الضئيل النحيل فى أهمية النتيجة والأثر ؟ .

هل الفائدة الوظيفية والنفع والقيمة الاجرائية للعالم لكمية معينة محدودة من الشجاعة ، كالمروءة والصبر ، لا تزيد اذا كان صاحب تلك الفضائل فى وضع متعلم يؤدى وظائف ذات آثار بعيدة المدى عما هى الحال اذا كان أميا جهولا يقطع الأخشاب وينزح الماء لمجرد أن يبقى حيا يرزق ؟

ان فلسفة تولستوى — على الرغم من أنها منيرة بالتأكيد — تظل على المستوى التجريدى الزائف .

انها تتصف الى حد كبير بنزعة المتشائم الشرقية وتتطعم بكمية وافرة من العدمية التى تزخر بها فلسفة تولستوى ، والتى تعلن أن العالم برمته وبحقائقه ومميزاته ليس الا باطلا وزيفا وغشا وخداعا كله مكر ونكر ..

اننا لن نستطيع أبدا بأفهامنا الغربية أن نعتقد أن العالم الظاهرى هو مجرد سراب خادع مزيف .

فعقلنا الغربى وفهمنا للعالم يقر كليا بأن المباهج والفضائل الباطنية هى الوظائف الحتمية لعمل الحياة ولكنها متأكدة أن ملاحق المسرحية يلعبون فيها دورا ايجابيا أيضا .

إذا كان من العته فى الرومانتيكية ألا تعترف بالبطولة الا اذا رأتها معنونة ومكسوة فى الكتب فمن العته أيضا ألا نراها الا خائضة فى الوحل لابسة حذاء قذرا وقميصا بلله العرق فى الحقول .

الحقيقة أن البطولة معنا متسترة فى كل وضع : هنالك فى شاتوكوا . وهنا فى جامعتك وفى ساحات البضائع وبيوت المال وفوق قطارات النقل وفى بلاط قيصر روسيا !

بيد أننا غريزيا ، نجمع بين شيئين فى الحكم على الأهمية الكلية والمعنى الكلى لانسان ما .

فنحن نشعر بأنها حصيلة (اذا كان من الممكن حساب هذا الناتج) فضيلته الباطنية وبيئته الخارجية ولا يمكن اعتبار كل واحدة منها على حدة ولكن لابد من وصل الاثنتين وقرنهما .

افحص تأليه تولستوى للعامل اليدوى البحت — بالحقائق .

هذا ما كتبه المستر والتر ويكوف Mr. Walter Wyckoff بعد أن اشتغل كعامل غير فنى فى هدم بعض المبانى فى وست پوينت West Point عن الحالة الروحية لتلك الطبقة من الرجال التى اختار أن ينتمى اليها مؤقتا لفترة ما ..

« ان الملامح الصامتة لحالتنا واضحة بما فيه الكفاية ، فنحن رجال كبار ولكن بلا حرفة . وفى سوق العمل نقف مستعدين لأن نبيع لمن يدفع أعلى أجر — قوتنا العضلية البحتة لمدة عدد معين من الساعات كل يوم . نحن

إذن على أسفل درجة من منسوب العمل . وعندما نبيع قوتنا العضلية فى السوق الحر المفتوح لقاء ما تساويه عندئذ حسب العرض والطلب — فاننا نبيعها تحت ظروف عجيبة ؛ فهى رأس المال الوحيد الذى نملكه ، ولذلك لا نستطيع أن نتوقف أو نتعطل « كثمن احتياطى » .

« اننا نبيع تحت الدافع الملح لسد غائلة الجوع . ومجمل القول أنه يتحتم علينا أن نبيع أو نهلك جوعا . وحيث ان الجوع مسألة ساعات قليلة وليست عندنا طريقة أخرى لملاقاة تلك الحاجة واشباعها ، فعلينا أن نبيع فورا لقاء ما تقدمه اا ق لنا مقابل عملنا » .

« أما صاحب اله الذى يستخدمنا فهو يشترى العمل فى سوق غالية ، وهو لذلك يستقطر ويعتصر منا أقصى مجهود ممكن فى مقابل الثمن الذى يدفعه » .

« أما رئيس العمل فهو مطمئن من حيث أغراضه ، وهو يعرف عمله جيدا ويتقنه — وهو السيطرة التامة علينا .

« انه شخص لم يسبق له أن رآنا ، وهو يطردنا بمجرد أن نزيح الأنقاض ونرفعها .

« وفى نفس الوقت يتعين عليه أن يعتصر منا أقصى ما يمكن من العمل الجسمانى الذى يستطيعه كل منا فرديا أو جماعيا .

« فاذا حدث لأحدنا أن سقط اعياء وأصبح منهوك القوى عاجزا عن ذلك فلن يخسر هو شيئا — اذ سرعان ما تمده السوق بغيرنا ليحلوا محلنا وهكذا ...

« نحن رجال جهلاء ، ولكننا نرى بوضوح جدا أننا بعنا عملنا حيث استطعنا أن نحصل على أعلى أجر وأن صاحب عملنا قد اشتراه حيث استطاع

أن يشتريه بأبخس الأثمان . لقد دفع غاليا وعليه أن يحصل على أقصى مجهود ممكن — وبدافع غريزى قوى عندنا نحاول أن نؤدى أقل ما يمكن من الجهد .

« لقد انمحى من مثل ذلك العمل الذى نؤديه كل عنصر من العناصر المكونة لكرامة العمل ونبله .

« اننا لا نشعر بأية كرامة شخصية فى أدائه أو تقدمه ، وليس بيننا وبين صاحب العمل إحساس مشترك بالمصلحة العامة .

« لا توجد متعة الاحساس بالمسئولية ولا لذة الشعور بالأداء ، وانما الملل البليد والسأم الكال للضنى الساحق . وجل همنا مركز فى الدقيقة التى ننعتق فيها من العمل واساره وعلامة الانصراف ثم الدقيقة التى تتسلم فيها أجورنا فى النهاية .

« وحيث إننا لا نزيد عن كوننا رواسب فى سوق العمل وليس لدينا أى ضمان للعمل الدائم ولا يوجد لدينا تنظيم يربطنا ويصون حقوقنا ويضمن مستقبلنا — فلا تتوقع الا أن نعمل تحت عين رئيس العمل الخارقة وأن نساق كالعبيد لأداء ما يطلب منا عمله » ..

كل ذلك ليقول لنا — فى الحقيقة : « ان حياتنا هى حياة جافة يابسة جرداء يائسة بائسة » . ومثل تلك الحياة القاسية الجرداء اليائسة — ليست بالتأكيد — الحياة التى نرغب أن نظل نعيشها الى الأبد . ولم ذلك ؟

ألكونهم قذرين ؟

حسنا — لقد كان نانسن Nansen أشد قذارة منهم طوال رحلته الفظيعة ، ومع ذلك لا نزدرى حياته من أجل ذلك . هل السبب هو انعدام الاحساس ؟

اننا ندرب جنودنا على عدم الاحساس ومع ذلك نمجدهم ونرفعهم الى أعلى عليين .

هل هو الفقر ؟

لقد حسب الفقر درة جمال توجت حياة كثير من الأبطال .

هل هى العبودية لعمل مع فقدان المتع الرفيعة ؟

هذه العبودية وهذا الفقدان هما جوهر الشجاعة فى أسمى مراتبها ، ويحسبان دائما أوسمة استحقاق فى سجلها — اقرأ سجلات من كرسوا حياتهم لأداء رسالة خير فى أنحاء العالم كافة .

انها ليست راجعة لأى من هذه الأسباب اذا أخذ وحده — وفى حد ذاته — كلا ولا حتى اذا أخذت كلها مجتمعة .

إن مرد هذه الحياة البائسة اليائسة ليس راجعا اليها . فقد يعيش رجل كعامل غير فنى ويؤدى عمل العامل غير الفنى ، ومع ذلك يعتبر من أسمى وأنبل مخلوقات الله .

ولا شك أنه كان يوجد أشخاص من هذا الطراز فى تلك العصبة من العمال التى وصفها المؤلف ، ولكن تيار أرواحهم كان خفيا — وكان المؤلف غارقا الى قمة رأسه فى العمى السلفى بحيث لم يستطع أن يتبين هذا التيار أو يحس به فضلا عن أن يحفل بوجوده .

فاذا كان هناك أفراد أفذاذ خلقيا على هذا النحو فما الذى جعلهم يختلفون عن الباقى ؟

لا يمكن أن يوجد الا سبب واحد وهو أن أرواحهم عملت وتحملت فى طاعة لمثل أعلى باطنى ، أما رفاقهم فلم يحركهم أى شىء يستحق هذه التسمية .

هذه المثل العليا فى حياة الآخرين هى من بين تلك الأسرار الدفينة التى قد لا نستطيع النفاذ اليها أبدا ولو أن شيئا ما فى سلوك صاحبها غالبا ما يفصح عن وجودها . وفى حالة السيد ويكوف Wyckoff بالذات فانا لنعرف بالضبط أى نوع من المثل الأعلى فرضه على نفسه .

فهو جزئيا قد أخذ على عاتقه أن يتم عملا عزوما مجدا ولكنه أساسا كان راغبا فى تعميق بصيرته الحانية لينفذ بها الى حياة زملائه فى العمل .

من أجل ذلك فان عرقه وكدحه يصطبغان بمعنى بطولى ويجعلاننا نحترمه ونقدره ونبجله تبجيلا استثنائيا — ولكن من السهل أن تتصور رفاقه بمثلهم العليا العديدة الأخرى .

وبصرف النظر عن زوجاتهم وأطفالهم ، فقد يكون أحدهم ممن تدينوا بعقيدة جيش الخلاص وفى قلبه بلبل يتغنى طوال الوقت الذى يعمل فيه بالعفو والصفح والتكفير عن الذنوب والغفران .

وقد يكون من بينهم فى هذه العصبة رسول على غرار تولستوى نفسه ، أو مواطنه الرفيق بونداريف Bondareff - يتطوع للعمل ويفنى فيه كرسالة دينية واجبة الأداء .

ثم ان الولاء للطبقة التى ينتمون اليها كان بلا شك مثلا أعلى يدين به الكثيرون منهم .

ومن يدرى مقدار تلك الرجولة العلوية السامية المصاحبة للفقر التى نفذ الى مكنونها فيليبس بروكس Philips Brooks — وجودا أو عدما فى تلك العصبة ؟

« ان الأرض الوعرة الخشنة الجرداء » — يقول فيليبس بروكس Philips Brooks هى الفقر اذا ما عشت فيها — أرض كثيرا ما أشكر

الله اذا ما استطعت الحصول فيها على ثمرة أقتات بها ، أو درنة أرد بهـا غائلة جوعى .

« ولكن العيش فيها — حقيقة — ودعها تشهد لى بنفسها — دون أن أهون من أمرها أو أجللها بالعار بأن أقارنها بالقياس الى الأراضى الأخرى — كالقرض الحسن يضاعف لك الجزاء أضعافا مضاعفة . ان لها من الصفات والمميزات مالا يتوافر فى أرض أخرى .

« انظر — هل توجد أرض كهذه الأرض الجرداء العارية الفقيرة تستطيع أن تتجلى فيها الچيولوچية الخلقية للعالم — كما تتجلى هنا ؟ انظر الى ضلوعها الجامدة تشمخ قوية متماسكة .

« لا توجد حياة مثل الفقر — تصل المرء بلب الأشياء وتجعل الناس يعرفون معناها وتجعلنا نشعر بمغزاها وطعمها مجردا من كل الوسـائد اللينـة .

« ان الفقر يقرب بين النفوس فتتلاقى ويوثق بين القلوب فتتعارف وتأتلف — والفقر فى علوه وشموخه وسموه فوق كل شىء يطالب مدويا فى صرخة عالية — بالايمان بالله .

« اننى أعلم الى أى حد من السطحية وعدم الاحساس تبدو كلمات المديح والاطراء للفقر — كما لو كانت مجرد سخرية هازئة .

« ولكنى واثق من أن كرامة الرجل الفقـير وحريته واحترامه لنفسه ونشاطه تتوقف على معرفته الودية المخلصة بأن فقره وجهة حقيقية لنمط من الحياة له مقاييسه وخصائصه وفرصة لشحذ الهمم وصقل الخلق — ومنابعه للسعادة والايمان بالله الذى يكشف للفقير عن ذاته ويرفع الغشاوة عن بصيرته .

« دعوه يقاوم انعدام الشخصية والخاصية التى كثيرا ما تصاحب الفقر ».

« دعوه يصبر على احترام الظروف التى يعيش فيها ، دعوه يتعلم حبها — حتى اذا أصبح غنيا فانه يخرج من باب الفقر الحقير الذى صاحبه طويلا وألفه ، وهو آسف ونادم على تركه شاعرا بالتكريم والتبجيل نحو ذلك المنزل الضيق الذى عاش فيه طويلا » *

إن الخسة والدناءة والعقر والعقم التى تلوث حياة العامل العادى — مردها الى حقيقة افتقارها الى مثل تلك المنابع الباطنية العلوية المثالية .

إن آلام الظهور الكادحة والساعات الطويلة والأخطار — تحتمل بصبر — فى سبيل ماذا ؟

للحصول على حفنة من التبغ — كوب من الجعة — فنجان من القهوة — وجبة وفراش — ثم يبدأ ثانية فى اليوم التالى ليتحايل ويتجنب الواجب بقدر ما يستطيع .

هذا هو فى الحقيقة السبب فى كوننا لا نقيم نصبا تذكاريا للعمال الذين يعملون فى قطارات تحت الأرض على الرغم من أننا نحن الذين نجندهم لذلك العمل وعلى الرغم من أن حياة مدينتنا تقوم على قلوبهم الصبورة وظهورهم الحاملة للعبء فى جلد وأكتافهم القوية .

وهذا هو السبب فى أننا نقيم النصب التذكارية بالفعل لجنودنا الذين عاشوا فى ظروف خارجية أكثر قسوة وضنكا من ظروف عمالنا .

بيد أن المفروض أن جنودنا يتبعون مثلا أعلى يحاربون من أجله . أما عمالنا فليس لهم منه نصيب .

إنكم ترون أيها الزملاء — كيف تتعقد المشكلة وتغلظ ، والى أى

* Sermons. 5th series, New York; 1893; pp. 166; 167.

مدى يبدأ هذا التعقد والتشابك لطبيعتنا الانسانية المدهشة ، فى التطور على أيدينا .

لقد رأينا ما فينا من عمى ولا مبالاة وجمود وموت حيال بعضنا البعض الآخر — وهى صفات أضحت من ميراثنا الطبيعى — ومع ذلك وعلى الرغم منها فلقد اضطررنا الى الاعتراف بمعنى باطنى للحياة يمضى طوال المسرحية وهو موجود فى حياة غيرنا حيث يكون آخر ما نرى وأبعد ما تتصور وأقل ما نلاحظ .

والآن يجدر بنا أن نقول ان مثل هذا المعنى الباطنى للعيش من الممكن أن يكون كاملا وثابتا وحقيقيا لنا — فى حالة واحدة فقط — عندما ترتبط السعادة الباطنية والشجاعة والاحتمال والصبر — بمثل أعلى .

ولكن ماذا نعنى على وجه التحديد بالمثل الأعلى أو المثالة ؟ أفلا نستطيع أن نحدد معنى مثل هذه الكلمة ؟ لحد ما نستطيع .

فالمثل الأعلى — أولا — ينبغى أن يكون شيئا مفهوما عقليا — شيئا نعقله ونعيه وليس شيئا نأتيه على غير وعى منا .

ولابد أن ينطوى هذا المثل عندما ندين به على ذلك النوع من وجهة النظر الرافعة المتألقة الوهاجة التى تصاحب كل المثالات والحقائق العقلية .

ثانيا — ينبغى أن يتوافر فى المثل الأعلى عنصر الجدة — الجدة على الأقل بالقياس لمن يؤمن بالمثل ويدين به .

ان الروتين المسلوق ، أو العادة المنقوعة تتنافى مع المثالية ، على الرغم من أن ما يكون روتينا مسلوقا عند شخص قد يكون مثلا أعلى بكل عناصر ومقومات الجدة عند شخص آخر .

وهذا يدل على أنه لا يوجد شىء مثالى مطلق .

فالمثل العليا نسبية بالقياس الى حياة من يدينون بها ويتعشقونها .

فتلافى الحضيض ليس جزءا من الوعى بتاتا لنا هنا — ولكنه للكثير من اخواننا فى الانسانية هو أكثر المثل شرعية التى تشغل بالهم .

واذن — من الناحية المجردة العارية المباشرة فانكم تتبينون أن المثل المجردة هى أرخص وأتفه الأشياء فى الحياة .

فكل إنسان عنده مثل فى صورة أو أخرى ، سواء أكانت شخصية أم عامة ، سليمة أم خاطئة ، عالية أم واطئة : وانك لتجد أصغر الناس أحلاما من المدعين والمتحمسين بلا روية ، والحالمين والمخمورين والمتقاعسين عن أداء الواجب ، ومحترفى الشعر الذين يتبعهم الغاوون ، وفى كل واد يهيمون ، ويقولون مالا يفعلون ، ولا يبذلون مثقال ذرة من جهد أو كفاح أو شجاعة أو تحمل أو صبر .. تجد هؤلاء جميعا يتشدقون بالمثل العليا التى تمرع فى أفواههم وتجدب فى سلوكهم — إن نفوسهم تطفح بالمثل العليا على أوسع نطاق .

إن التربية — لكونها توسع أفقنا ووجهة نظرنا — هى وسيلة لمضاعفة وتعدد مثلنا العليا ولتزويدنا بالجديد منها لنستوضحه فى مجال وعينا .

ولو أن أستاذكم الجامعى بقميصه المنشى وعويناته اللامعة اكتفى بذخيرة من المثل العليا — وقنع بها فى حد ذاتها لتجعل حياته ذات معنى ومغزى وقيمة — لأصبح هذا الأستاذ أهم الناس وأعمقهم وأكثرهم قيمة على الاطلاق — ولكان تولستوى أعمى عمى كاملا لاحتقاره له ودمغه بصفات الغرور والتقليد الأعمى والادعاء العلمى . ولأضحت كل بصيرتنا المقدسة للعمل العضلى مجافية للحقيقة وغير ذات موضوع .

ولكنكم تشعرون غريزيا أن مثل تلك الاستنتاجات خاطئة .

وكلما كثر نصيب المرء من المثل العليا — استمر احتقارك اياه — بصفة عامة — اذا وقف عند هذا الحد فحسب — حد حيازة أكبر عدد من المثل العليا — واذا كان العامل لا يمارس فضيلة من فضائله ممارسة عملية فلا يبدى شجاعة ولا ضبط نفس ولا قدرة على الحرمان ولا بذل العرق والدم والدموع فى محاولته لتحقيق تلك الفضـائل .. فنصيبه منك أيضا الازدراء والاحتقار . من الواضح اذن — أن هناك شيئا أكثر من مجـرد حيازة المثل العليا واصطناعها — شيئا لابد من توافره ليضفى على الحياة أهمية ومعنى ومغزى يستحق اعجاب وتقدير المشاهد .

قد يكون فيها المتعة الباطنية — فلنسلم بذلك — بما فيها من مثل . ولكن هذه مسألة عاطفية خاصة بها .

فلكى تستخلص منا — نحن الخارجون عنها بما عندنا من مثل عليا تشغلنا — جزية الاعتراف بها ، فلابد من أن تساند مثلها العليا المنظورة بتلك الدعامات الموجودة عند العمال ، وقوامها مادة الفضيلة والمروءة والشهامة .

وان تضاعف سطحها العاطفى وتدعمه بالقدر الوافى من الارادة النشطة الايجابية اذا قدر لها أن تكون عميقة راسية الجذور ذات تركيب مكعب مجسم متين بالقياس الى الخلق .

ان معنى وأهمية ومغزى أى حياة انسانية — بالقياس الى تفاعلاتها ومدى الاعتراف بها وتقديرها — هو وليد زواج بين أب وأم مختلفين لا يتم الانجاب بأحد الطرفين دون الآخر ، فكل طرف منهما عقيم بذاته وحـده .

فالمثل العليا فى حد ذاتها — معزولة من القرين — لا تعطى حقيقة ولا تثمر ولا تخصب .

والفضائل فى حد ذاتها لا تمد الحياة بعنصر الجدة. فليقل الشرقيون والمتشائمون ما شاء لهم من القول !

أما أشد الأمور عمقا — أو على أية حال — أعمقها نسبيا فى الحياة ، فهو الصفة التقدمية فيها ، ذلك الاتحاد العجيب المؤلف من الحقيقة أو الواقع والجدة المثالية التى تتتابع وتتوالى من لحظة لأخرى — حتى الحاضر .

وتعرف الجدة المثالية هو وظيفة وعمل ما نسميه بالذكاء . وليس كل ذكاء بقادر على تبيان عنصر المثالية فى كل جدة ؛ ذلك أن الشىء المثالى يظل عند الكثير دائما متشبثا بفكرة الخير المألوفة عندهم . فى هذه الحالة يمكن اعتبار الخلق ذا معنى ومغزى وقيمة من ناحية تأثيره فى العواطف ، على الرغم من كونه ليس ذا مغزى أو قيمة أو معنى بصفة كلية .

وعلى هذا اذا كان علينا أن نختار بين أكثر عنصرى الشخصية الانسانية ضرورة وحتمية هل هى فضيلة الكفاح والمقاتلة أم فضيلة السعة الفكرية ، فينبغى أن ننحاز الى صف تولستوى ونختار ذلك الاخلاص البسيط لنوره أو ظلامه الذى يستطيع أن يبديه أى رجل عادى من غير رجال الفكر والعلم .

بيد أننى — على الرغم من كل هذا الدق الموصول والضرب على كل وتر وتغيير مجرى السفينة من جانبى — أخشى أن تعتبروا أننى وصلت الى نتيجة مربكة ، الى متاهة كلها تخليط .

إذ يبدو لى أننى لم أفعل أكثر من التقاط الأشياء ورفعها ثم اسقاطها ثانيـــة !

فأولا التقطت شاتوكوا ثم أسقطتها ، وبعد ذلك التقطت تولستوى وبطولة عمل وجهد وشقاء الرجل العادى ثم أسقطتها ، وأخيرا أمسكت بالمثل العليا ، ويبدو أننى الآن أكاد أسقطها أيضا .

ولكن أرجوكم أن تلاحظوا فى أى معنى أسقطتها . اننى لم أسقطها الا عندما تدعى أنها وحدها وبمفردها صاحبة حق استرجاع قيمة ومعنى ومغزى وأهمية الوجود .

ان الثقافة والذوق الرفيع وحدهما ليسا كافيين ليحدثا ذلك .

والمثل العليا وحدها لا تكفى اذا لم تقترن بالارادة والشجاعة والقطوف .

ولكن — لا الشجاعة والارادة ولا التحمل العنيد ولا عدم المبالاة بالخطر — تكفى فى حد ذاتها — ينبغى توافر نوع من الدمج والذوبان — نوع من الاتحاد والتفاعل الكيموى بين تلك المبادىء لكى تنتج عن ذلك حياة لها أهمية ومعنى وقيمة مكتملة الموضوعية والشمول .

وطبعا هذه نتيجة يشوبها الغموض وخاتمة يكتنفها الالتباس .

بيد أنه لا يمكن الوصول الى نتائج دقيقة مضبوطة فى مسألة تتعلق بالقيمة والمعنى كهذه .

ان مسألة التقدير والعاطفة دائما مسألة اعتبارية نتيجة موازنة بين الفهم والبصيرة والنية الطيبة ، ولكنها تعطى اجابة على كل حال ونتيجة حقيقية فعلية .

وطوال طريقنا ونحن نحاول الوصول اليها فتحت أعيننا على أمور هامة كثيرة .

ولعل بعضكم قد أصبح أكثر وعيا مما كان عليه منذ ساعة بأعماق القيمة والمعنى والأهمية المنتشرة فى حياة غيره من الأغراب الذين يعيشون من حوله .

وعندما تتساءل عن مدى العطف الذى ينبغى لك أن تسبغه — على الرغم من أن كميته فى الواقع منوطة بالمثل الأعلى الذى تدين به — الا أنك

بالقياس الى فكرة قرن المثل العليا بالفضائل الايجابية النشطة ، تجد نفسك مزودا بقاعدة تشكل بها قرارك وتقرر بمقتضاها موقفك .

وفى كل حالة فان خيالك يتسع وتمتد آفاقه ، وتصبح أكثر تواضعا موطأ الأكناف تألف وتؤلف زاخرا بالاحترام والتسامح حيال الغير ، فواحا بعبير الحب والود للآخرين ، ثم تكسب متعة باطنية خاصة من القيمة المتزايدة والأهمية المتسعة التى تضفيها تلك المعانى على حياتنا العادية المشتركة .

مثل هذه الغبطة هى نوع من الايحاء الدينى ، وعنصر من عناصر الصحة الروحية ، ورصيد مذخور أكثر قيمة من تلك الكميات الهائلة من المعلومات الفنية الدقيقة التى نفترض نحن الأساتذة أننا قادرون على نقلها .

ولكى أبين ماهية ذلك الشىء الذى أعنيه بتلك الكلمات ، فسأضرب مثالا عمليا واحدا موجزا ، ثم أختم كلامى .

إننا نعانى اليوم فى أمريكا ما يسمى قضية العمل ، وعندما تخوضون غمار الحياة الخارجية ستجدون أنفسكم جميعا فى قبضة تلك المشكلة المحيرة . انى أستعمل ذلك التعبير الموجز « قضية العمل » لأعطى به كل أنواع التذمر الفوضوية والمشروعات الاشتراكية والمقاومات الرجعية التى تثيرها .

وما دام هذا الصراع صراعا مختلا معتلا يذكى لهيب الأسى ويثير الأسف ، وبقدر ما يكون كذلك — وأعتقد أنه كذلك لدرجة محدودة — فان اختلاله أو اعتلاله راجع الى حقيقة واحدة قوامها أن نصف مواطنينا ما زالوا مصابين بعمى كلى لا يرون بسببه القيمة الباطنية الداخلية لحياة النصف الآخر .

ولذلك لا يشعرون بالمباهج والآلام — ويعجزون عن الاحساس بالفضيلة الأخلاقية ، ولا يخمنون وجود المثل العليا الفكرية ..

ان أغراضهم متضاربة على طول الخط بالقياس فيما بينهم ، كما لو كانوا ينظرون الى مجموعة من الذرات المتحركة الخطيرة أو — وهذا أدهى من ذلك وأمر — اذا حاولوا معرفة البواعث الباطنية فانهم يقترفون أفحش الأخطاء .

وغالبا ما تكون فكرة الرجل الفقير عن الغنى أنه مصاب بجشع جبان هادف لايثار العافية والسلامة والترف والتخنث والادعاء والنفاق الذى لا حد له .

أما ماهية هذا الرجل الغنى — وكينونته — فقوامها أنه ليس كائنا انسانا ، وانما دفتر صادر ووارد وحساب فى بنك .

وصفة الجشع — التى تتحول بسبب خيبة الأمل الى حقد — هى كل ما يراه كثير من الأغنياء فى تفكير الفقراء المتذمرين .

واذا ما بدأ الغنى يبدى عطفه نحو الفقير ، فما أكثر الحماقات التى يرتكبها — فهو يشفق عليه بسبب تلك الواجبات بالذات وتلك الحصانات — التى اذا أخذت على صحتها — كانت الشرط اللازم لأعظم متع الفقير الثابتة التى يتميز بها .

فكل فريق — بالاختصار — يتجاهل حقيقة أن السعادة والشقاء والأهمية والمعنى هى سر حيوى . وكل فريق يربطها بصفة تتميز بالسخف وتدعو الى السخرية — تتعلق بالوضع الخارجى ، وبذلك يظل كل فريق خفيا عن أعين الفريق الآخر .

بيد أن المجتمع — مع ذلك كله — يتعين عليه أن يمضى قدما نحو توازن جديد أحسن ولابد لتوزيع الثروة من أن يتغير ببطء ما فى ذلك شك. فلقد حدثت هذه التغيرات دائما وستظل تحدث حتى نهاية الزمان ولكن إذا بدا لأى منكم — بعد كل الذى قلته — أن يتوقع احداث فروق جوهرية أصيلة على نطاق واسع فى حياة ذرياتكم وسلالاتكم ، فمعنى ذلك أنه لم يفهم معنى محاضرتى برمتها .

ان المعنى الاجتماعى للحياة هو دائما نفس المعنى الخالد الأبدى السرمدى — أى الزواج بين مثل أعلى جديد مستحدث غير معتاد — مهما كان خاصا — من الأمانة والشجاعة والتحمل وبين آلام الرجل أو المرأة .

وأيا كانت الحياة وأنّى كانت فستكون هناك فرصة دائما لحدوث هذا التزاوج .

ولقد عبر فتز جيمس ستيفن Fitz James Stephen منذ سنوات عديدة عن هذا المعنى بكلمات أبلغ وأفصح من أى كلمات أستطيع أن أقولها : « ان سكك حديد الجريت ايسترن The Great Eastern أو بعض خلفائها — ستتحدى درجة المحيط الأطلنطى وستعبر البحار دون أن تسمح لركابها بأن يشعروا أنهم غادروا الأرض الثابتة — ان الرحلة من المهد الى اللحد قد يصبح من الممكن أداؤها بنفس السهولة .

« إن التقدم والعلم قد يمكنان الملايين الذين لا يحصيهم عد من أن يعيشوا ويموتوا دون هم أو غم أو ألم أو قلق . وسيمضون رحلتهم سخاء رخاء فى سرور وحبور وتحديث شهى طلى ، ولن يصدقوا أن الناس فى الماضى اعتقدوا وآمنوا بشن الحروب وحرق المدن واغراق السفن ورفعوا أكف الضراعة والذل ، وانهم عندما يصلون الى نهاية الشوط يمضون الى غايتهم فى طريقهم ، ومن هناك لا يعرفهم الطريق بعد ذلك ..

« بيد أنه ليس من المرجح أنه سيكون عندهم معرفة بالمحيط الذى يركبون متنه — بعواصفه وأحداثه وتياراته وأطواقه الثلجية وأمواجه الهائلة ورياحه الجبارة — على غرار أولئك الذين كافحوا مما ضد جبروته سنوات طويلة فى السفن الصغيرة التى كان لها الفضل — فى وضع من سيروها فى مواجهة الزمن والخلود ، وأجبرتهم على أن تكون لديهم وجهة نظر محددة عن علاقاتهم بها (كخالق ومخلوق) وعن علاقاتهم بأنفسهم »*

فى هذا المعنى المجسم المثلث الأبعاد — (فلنسمه كذلك) فان أولئك الفلاسفة الذين يحاجُّون بأن العالم شىء ثابت واقف لا يتقدم ، وأن ليس له تاريخ فعلى — على حق فيما يقولون — ذلك أن الظروف والأحوال المتغيرة للتاريخ لا تمس الا السطح والقشرة وحسب فى هذه المسرحية الانسانية .

والتوازنات المتغيرة المتداولة ، واعادة توزيع مراكز الثقل فى الحياة ، انما تنوع فرصنا وتفتح أمامنا الأبواب على مصاريعها لاصطناع مثل عليا جديدة .

ولكن مع كل مثل أعلى جديد يأتى الى الحياة أو يبعث أو يولد فان الفرصة فى حياة ترتكز على مثل أعلى قديم ستزول وتختفى ، ولا يحتاج المرء الى أكثر من أن يكون حاسبا متجبرا يتجنى على الحقيقة اذا ما قال فى ثقة واعتداد ان حاصل جمع المعانى والقيم الهامة فى أى عنصرهو—على سبيل الجزم وعلى الاطلاق — أكبر منه فى أى عصر آخر من عصور الدنيا ومراحل العالم .

انتى أعلم أننى أتكلم — بصفة عامة — واننى أغفلت اعتبار بعض

* Essays by a Barrister; London; 1862; p. 218.

القيود والمؤهلات التى أومن بها أنا نفسى . ولكن الانسان لا يستطيع أن يثير أكثر من نقطة واحدة فى محاضرة واحدة . على أننى سأكون قانعا وراضيا اذا كنت قد نجحت فى تجلية هذه النقطة لكم هذه الليلة ، ولو الى حد قليل .

بيد أن هناك تعويضات فى الحياة .. ولا يمكن لأى تغيرات خارجية فى ظروف الحياة وأحوالها أن تمنع بلبل معناها الخالد — من أن يغنى فى كل أنواع القلوب المختلفة للناس .

هذه هى الحقيقة الأساسية الجديرة بالتنويه والتذكر .

فاذا استطعنا أن نقرها ونؤكدها — ليس بشفاهنا فحسب — ولكن نؤمن بها حقا وصدقا ، وندين بها فى قلوبنا وسلوكنا ، فكم من دواعى إصرارنا والحاحنا المتشنج ، وكم من دواعى نفورنا وكراهيتنا ومخاوفنا بعضنا من بعض — ستلين وتزول .

إذا استطاع الأغنياء والفقراء أن ينظروا الى بعضهم البعض — بهذه الطريقة — فستقل حدة توتراتهم وستتسم منازعاتهم بطابع الرقة واللين والهدوء ، وستزخر الدنيا بالتسامح وبروح الدعابة ، وستمتلىء نفوس الناس جميعا بالرغبة الصادقة فى أن يعيشوا ويدعوا الغير يعيش .